
مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020
روايات مصرية للجيب
أسطورة النداهة
ما وراء الطبيعة
٢


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

مقدمة..

الاسم: د. رفعت إسماعيل.

السن: ستة وستون عامًا.

المهنة: أستاذ أمراض الدم (سابقا) بعدد لا بأس به من الجامعات في مصر وأوروبا وأمريكا.

الحالة الاجتماعية: أعزب.

٢

روايات مصرية للجيب

•

ماوراء الطبيعة

أسطورة النداهـــة

روايات مصرية للجيب

●

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنف مصري مائة في المائة
لا تشوبه شبهة الترجمة أو
الاقتباس

●

بريشة

الأستاذ/إسماعيل دياب

●

إشراف

الأستاذ/ حمدي مصطفى

●

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة – المطابع ٨، ١٠ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية – منافذ البيع ١٠، ١٦ شارع كامل صدقي الفجالة– ٤ شارع الإسحاقي بمنشية البكري روكسى مصر الجديدة – القاهرة ت ٢٨٣٥٥٥٤– ٥٩٠٨٤٥٥– ٢٥٨٦١٩٧ فاكس – 202/2596650 ج.م.ع.
4 شارع بدوي / محرم بك – الإسكندرية

روايات مصرية للجيب



ما وراء الطبيعة

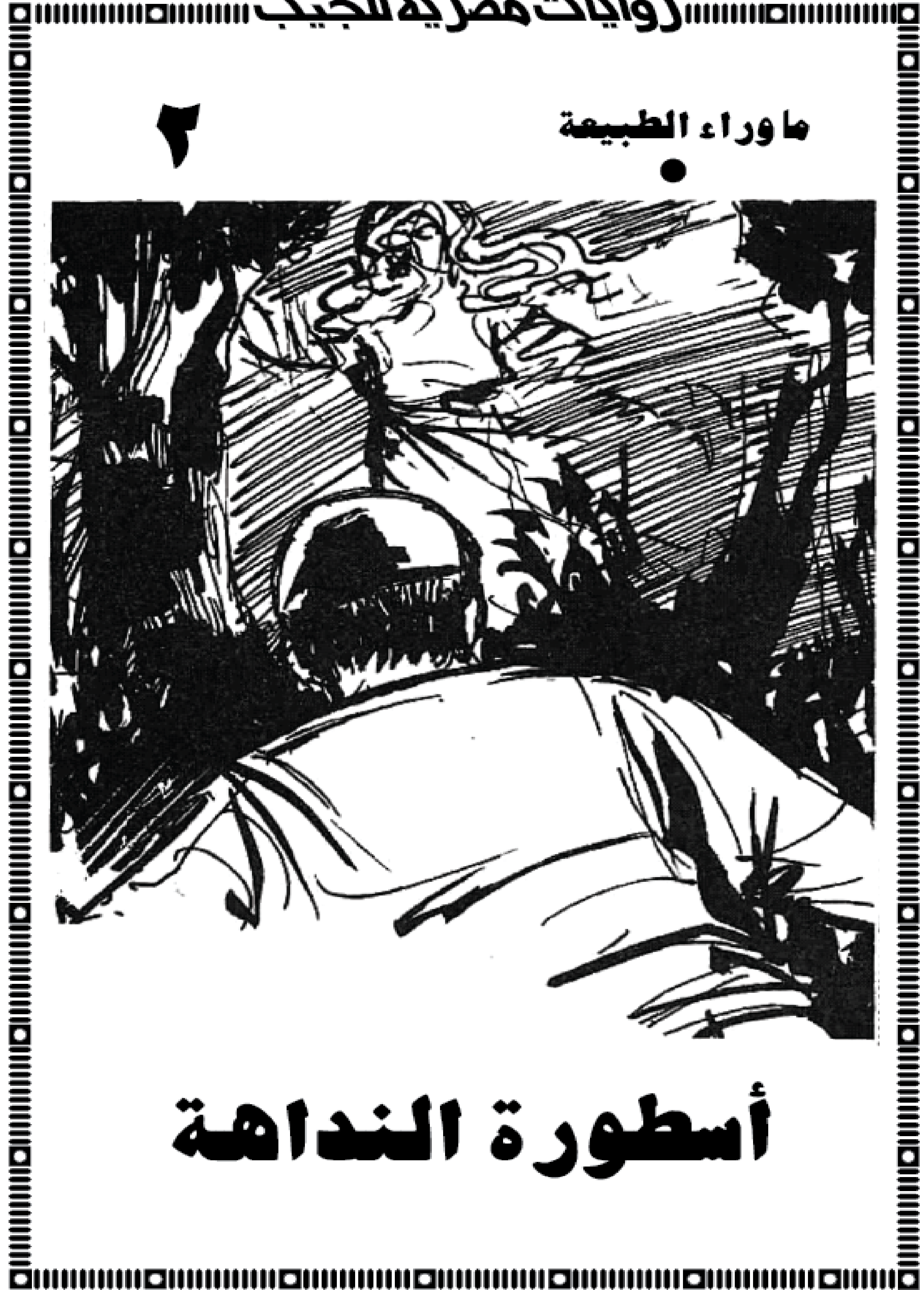
روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

أسطورة النداهة

بقلم :

د. أحمد خالد توفيق




روايات مصرية للجيب
ما وراء الطبيعة
٢
أسطورة النداهة

لقد عشت حياة حافلة أنقب فيها في كل مكان عن أساطير الحياة التي ورثناها عن أجدادنا وأثارت رعبنا كما أثارت رعبهم..، واجهت الكونت (دراكيولا) و(الزومبي) ودخلت قلعة د. (فرانكنشتاين) وتعرضت للعنة الفراعنة ولعبت بأوراق التاروت وغير ذلك الكثير..

وقبل أن يحين الأجل أو يقضي تصلب شرايين المخ على ذاكرتي آثرت أن أكتب حكاياتي كي يعرف الشباب أي محارب للخرافات والخزعبلات كنته في حياتي.

واليوم سأحكي لكم حكايتي المريرة مع رعب القرى المصرية العتيد.. (النداهة).. ولن أكرر نفسي..

لا تقرءوا هذه الصفحات إلا نهارًا وبين أحبائكم..

إن الليل والوحدة يثيران الخيال.. وأنا أعرف هذا جيدًا لأني عانيت منهما كما لم يعان أحدكم..، ولهذا - ولهذا فقط - أوصيكم ألا تقرءوا هذه الأوراق وحدكم ليلًا.. انتظروا شمس النهار.. ودفء الصحبة الآدمية.

لقد نصحت.. وقد أعذر من أنذر!!.

* * *

١ - العودة..

قريتي أخيرًا!..

قريتي العجوز الطيبة حيث كانت طفولتي ومراهقتي قبل أن أنتقل إلى القاهرة كي أدرس الطب وأقيم هناك..

لم يتبدل شيء..

البيوت الطينية.. الساقية.. المسجد الذي تآكلت جدرانه.. الترعة الراكدة.. النخلة المائلة فوق حائط الكتاب.. الأطفال الحفاة يلعبون ألعابهم البدائية وقد تدلي المخاط من أنوفهم..

وكنت أنا في سيارة أجرة.. واحدة من تلك السيارات العتيقة التي لا تصلح إلا للسقوط براكبيها من الفلاحين التعساء في الترعة، لم تكن سيارتي لتتحمل هذا الطريق الوعر ؛ لذا تركتها في القاهرة..

ثمة فلاح عجوز متشكك يجلس جواري وترتعش شفتاه بآيات قرآنية طيلة الوقت، وكل ثلاث دقائق يهتف في السائق:

- بالراحة يا (صالح)!.. هي الدنيا طارت؟!..

فيضحك السائق في فظاظة، ويرفع عقيرته بالغناء بصوت أجش (لم تكن أجهزة كاسيت السيارات منتشرة في ذلك الوقت لحسن الحظ)، وتزداد سرعة العربة أكثر...

وعلى جانبي الطريق يتوقف الفلاحون عن العمل في حقولهم ليروا ما هنالك وقد ضيقوا عيونهم - من أثر الغبار والعرق - مؤكدين حقهم الإلهي في التدخل فيما لا

يعنيهم.. إلى أن يقول أحدهم في ذكاء واضح:
- هذا (صالح)!
- لقد عاد إذن!
ويواصلون عملهم.. ويواصل العجوز قراءة القرآن..

* * *

قريتي أخيرًا
هي إحدى قرى محافظة الشرقية على مسافة قصيرة من (فاقوس) واسمها (كفر بدر).. هل تعرف هذا الإسم؟!.. لا أظن.. هل ستذكره؟!.. لا أظن..
إنه اسم آخر من تلك الأسماء المتشابهة التي يزخر بها ريفنا الطيب والتي لا

يعرفها ولا يهتم بها سوى أبناء قراها..
من هذه القرية الصغيرة صرت أحد أساتذة أمراض الدم المرموقين وعضوًا مرغوبًا فيه في كل منتدى علمي في العالم.. وصديقًا لكل علماء الدم في الأرض..
ليس هذا غرورًا ولكنه اعتراف بفضل هذه القرية الفقيرة عليّ..
واليوم أعود إليها بعد انقطاع، شاعرًا بحاجة النبات إلى جذوره..
نظرات الأطفال الفضولية تلاحقني، والحسناوات المراهقات يختلسن إلي الطرف ثم يلكز بعضهن البعض في دلال مرح.
لا أحد يتذكرني تقريبًا.. لا أحد..

*   *   *

وصلت إلى دارنا.. الدار الحنون التي عشت فيها أجمل أيامي، وهي - كأغلب بيوت القرية - مصنوعة من الطين اللين، مصطبة عند مدخلها فوقها مصباح جاز مشروخ.. ثم الباب الخشبي العملاق.. والفسحة التي يمرح فيها البط والدجاج يتسلى بالتقاط الحشرات من الأرض الطينية الزلقة، وحجرة على يمين الداخل.. والفرن العتيق.. ثم تدرجات طينية منحوتة كيفما اتفق تصل إلى الطابق العلوي حيث السطح بما عليه من أكوام تبن وأقراص من روث الماشية معدة لتجف.. وجوارها

حجرتي.. وبالطبع لم تكن الكهرباء قد وصلت قريتي في ذلك الوقت..
على الباب تنحنحت.. ثم دخلت وألقيت نظرة على العنز الصغيرة التي أخذت ترمقني في دهشة..، سيدة عجوز جالسة وأمامها طشت نحاسي كبير مليء بالأرز وقد شرعت تنقيه.. وجوارها شابة حسناء منهمكة في تنظيف طفل صغير عار تمامًا...
رفعت العجوز عينيها الذابلتين لأعلى فرأتني..
- ابني... (رفعت)..!
- أمي..!
وارتميت في أحضانها وقبلت يديها في نهم.. اليدين المعروقتين العزيزتين.. في

حين شرعت الشابة تعانقني من الخلف دامعة ويداها مبتلتان بعد..

- أخي..!.

يا للحنان.. ويا للرقة! أبدًا لم أتلق في حياتي قبلات بلا ثمن وصادقة إلى هذا الحد من أية امرأة إلا من أمي وأختي، وأبدًا لم يبك إنسان بصدق حين يراني إلا هاتين العزيزتين، لكنني لم أفطن أبدًا قبل تلك اللحظة إلى ما هما فيه من فقر وبؤس حال..، دائمًا كانت هذه المعالم التي تحيطهما حقيقة مسلمة في عيني إلا أن فترة غيابي عنهما جعلتني أفطن إلى أن من واجبي أن أوليهما عناية مادية أكثر..

إنني - الآن - قادر على أن أبني لهما بيتًا من الطوب.. وأن أوفر لهما الكثير من

سبل الراحة التي هما جديرتان بها..

لكن شيئًا في عيني أمي جعلني أؤجل التفكير في ذلك. .إن حساسيتها الزائدة لن تعتبر اقتراحي برًا بأهلي بل سترى فيه لونًا ما من التعالي على بيئتي، أن فكرة إقامتي وحيدًا بالقاهرة وسفري للخارج مرارًا لا تفارقها.. وهي تؤمن إيمانًا مطلقًا لا يتزحزح أنني - لابد - قد تغيرت، وهي تنتظر أول تلميح مني كي يتحطم قلبها..

نعم.. لنرجئ هذا الحديث الآن..

* * *

كانت عودتي - للأسف - وبالًا على الطيور بالدار... مذبحة دامية قامت بها أختي.. وتم إعداد مأدبة هائلة لي في حين

أخذت أمي تدير (العملية) كجنرال في حرب يعرف تمامًا كيف يكسبها.. رحمها الله كم كانت باسلة نشيطة.

وجالسًا كهارون الرشيد على الطبلية بين أكوام الرقاق واللحم واللبن الرائب والخبز والفطير، ادركت أن علي أن التهم كل هذا عن آخره وإلا تحطم قلبا هاتين العزيزتين! وأمي - ككل أم مصرية - تؤمن أن صحة ابنها ليست على ما يرام في أية لحظة تراه فيها، وتؤمن أن الأكل هو العلامة الوحيدة الموثوق بها على الصحة، ثم هي - طبعًا - ترى انني تأخرت في الزواج إلى حد مرعب..

- كم أتمنى أن أطمئن عليك مع زوجتك، هي التي ستعرف كيف ترعى صحتك

وطعامك..!

آه يا للنغمة الأليمة!

كنت أنا وقتها قد بدأت أشعر بالوحدة وبتلك الغريزة التي يستشعرها الواحد منا فيرغب أن يكون اثنين ثم ثلاثة ثم أربعة وهكذا.. لم يكن قلبي يختلف عن قلب البواب والسباك وبائع الجرائد.. تلك الحاجة الملحة إلى رفيقة درب تنتظرك عند عودتك ليلًا وتودعك عند ذهابك صباحًا..

رحمك الله يا أمي!.. كيف لو عرفت - وكيف لو عرفت أنا - أنني سأصل إلى سن السادسة والستين وحيدًا، ولم يكن في توقعي أنني سأري كل هذا الذي سأراه وأنني سأقضي زهرة عمري بين

مصاصي الدماء والمسوخ حتى لا يبقى لدي وقت ولا متسع من عاطفة يسمحان لي بأن أجد فتاة لطيفة تشاركني حياتي...
ابتلعت قطعة اللحم التي كنت ألوكها. وغمغمت:
- ربنا يسهل!
ونظرت لوجهها الودود الطيب كيف لو عرفت ما مررت به في انجلترا وفي رومانيا؟!.. لو عرفت لماتت هلعًا.. ولأقسمت أن أظل في كنفها آمنًا حتى يموت واحد منا..
مددت يدي أداعب ذقن الطفل العاري الذي أنا خاله. .وسألت:
- كيف حال (طلعت) زوجك يا (رئيفة)؟
- بخير.. سيعود ليلًا..

غمست لقمتي في القشدة وطوحتها لفمي.. وواصلت الاطمئنان:

- وما أخبار (رضا)؟!

و (رضا) - إن كنت لا تعلم - هو أخي، وهو فلاح آثر أن يرعى أرضنا في القرية ويقيم مع زوجته في الناحية الأخرى من البلدة لأن زوجته العصبية المتعالية لم ترد أن تعيش مع أمي وأختي..، مرت دقائق فطنت بعدها إلى أن واحدة منهما لم تجب عن سؤالي..

- أقول.. ما أخبار (رضا)؟

نظرة ساهمة في عيني أمي.. ودمعة متجمدة في عيني أختي وهي تحاول تجاهل السؤال بالتشاغل بإطعام طفلها.. ماذا حدث؟!

- أمي.. ماذا حدث..؟

وجدت أمي ألا مفر من الإجابة عن سؤالي فنظرت لعيني وهمست:

- رعاه الله وحفظه

- ماذا؟.. هل.. هل هو مريض؟.. هل تورط في مشاكل ما؟.. أن (نجاة) زوجته..

- لا تتهم أحدًا يا بني.. إنها إرادة الله..

- إذن ماذا حدث..؟

أنهضت أختي ابنها من على حجرها.. وهمست:

- (رضا).. نادته النداهة..

* * *

٢ - أسطورة جديدة..

النداهة؟!.. يا للذكريات التي تثيرها هذه الكلمة عندي..!.. حكايات جدتي لنا جوار الفرن ونحن بعد صبية صغار نصغي لقصصها بعيون مفتوحة وأفواه فاغرة... قصة تلك الشابة الحسناء التي تسير في الحقول ليلًا تنادي الشباب - الذكور طبعًا - كي يلحقوا بها.. ويهرع الشاب إلى أحضانها، وهنا تتحول إلى حقيقتها.. غول مرعب شرس يفترس الفتى فلا يسمع عنه أحد بعدها..

لكم أرّقتنا هذه القصة..!، ولكم تخيلنا تفاصيلها الشنيعة في مئات الصور

المرعبة، ومازلت - بعد كل هذه السنين - أذكر صوت جدتي الخشن الخفيض يردد في حزن ذلك الموّال:

فين الولد يا مّه؟ قالت نسي أهله
فات البلد لمّا الغولة نادت له

❋ ❋ ❋

فين الولد يا ولاد؟ قالوا الولد مسحور
سافر وراها بلاد وادي السنين بتدور

يا لها من قصة... واليوم تبعث هنالك من فصوص مخي الخلفية.. والغريب أنها تعود إلي في هذا الوقت.. ومع أخي بالذات!..

- هل.. هل تعنين النداهة؟

- نعم!..

- النداهة.. المرأة التي تنادي الشباب و...؟

- نعم.. زين الشباب..

ألقيت باللقمة التي في يدي على الطبلية، ونهضت في حنق:

- ماذا تعنين بهذا الكلام الفارغ؟!

قالت أمي بعين دامعة:

- أقسم على هذا.

- ولكن لا يوجد شيء كهذا..

- يوجد يا بني.. يوجد.. هل نسيت كلمات جدتك أم أن الإقامة في مصر قد جعلتك تنسى كل شيء؟!

آه.. يا لهذه النغمة التي كنت أخشاها..، مرة أخرى تذكرني أمي أنني تغيرت حتمًا، وأنني أعتقد أنني أكبر وأفضل من

كل معتقدات أهلي.. وهذا - بالطبع - ليس صحيحًا.. لا يجب أن أظل مؤمنًا بالغولة والنداهة والحطمة لكي أثبت لهم أنني لم أتغير..

- حسن.. كيف نادته؟

- نادته.. وهذا كل شيء.

- وهو.. هل هو موجود أم ماذا؟!.. هل اختفى؟!.

- إنه في بيته.. لكنه تغير.. لم يعد يكلم أحدًا، ولا يأكل ولا يشرب..

- لكن هذا لا يدل على شيء..

- إنه ينتظر نداءها الثاني ليلحق بها للأبد..

يا للجنون... الهراء الذي يطاردني في انجلترا ورومانيا وحتى هنا في قريتي

حيث ظننت أني سأنال بعض الراحة النفسية..، يجب أن أحقق في الموضوع بهدوء ودون انفعال، يجب ألا أسمح لنفسي أن أصرخ في هاتين البائستين.

- حسن...

قلتها في استسلام.. وأردفت:

- أريد أن أراه فهل هذا مسموح به على الأقل؟

❋ ❋ ❋

ذهبت لدار أخي المصنوعة من الطوب الأحمر وعلى بابها كفوف مفتوحة حمراء لمنع الحسد مع بعض العبارات التي تحاول طرد الحاسدين.. وقرعت الباب في حزم..

انفتح الباب عن زوجة أخي بوجهها الصارم المتعالي، وما إن رأتني حتى رسمت ابتسامة قاسية على شفتيها.. ورحبت بي في فتور:

- أهلًا يا دكتور.. الحمد لله على السلامة..

وقادتني للداخل.. وكان هناك ثلاثة أطفال يلعبون في صحن الدار توقفوا عن اللعب، وأخذوا يرمقونني بعيون فضولية واسعة..

-هيا يا أولاد.. سلموا على عمكم.

امتد كفان صغيران يصافحانني في حين توارى الثالث في خجل مذعور برغم لوم والدته له، تمتمت ببعض كلمات الإطراء على نمو الأطفال وظرفهم، ثم سرت خلفها إلى غرفة النوم..

هناك - على الفراش - كان جالسًا.. (رضا) أخي وقد انثنى على نفسه منطويًا.. وكان الليل قد بدأ يحل مما جعل الرؤية عسيرة نوعًا..

- (رضا).. لقد جاء أخوك الدكتور (رفعت).. هيا رحّب به..

لم يرد..

- (رضا).. لقد جاء من مصر خصيصًا من أجلك..

استمر الصمت..، جلست جواره في هدوء وتأملته.. كان يرتدي جلبابًا أزرق متسخًا.. ورأسه عار.. وفي عينيه نظرة تائهة ترمق أبعادًا أخرى لا نعرفها..

لم يتغير كثيرًا ومازلت أرى ملامحي في ملامحه.. لكن ماذا دهاه؟

-(رضا).. ألا تعرفني؟



جلست جواره فى هدوء وتأملته .. كان يرتدى جلبابًا أزرق متسخًا ..
ورأسه عار .. وفى عينيه نظرة تائهة ترمق أبعادًا أخرى لا نعرفها ..

لم يبد عليه أنه سمعني فضلًا عن أنه عرفني أساسَا..، ربت على كتفه والتفت إلى زوجته حيث وقفت ويداها في وسطها..

- منذ متى؟

- منذ أسبوع..

- وماذا حدث..!!..

قالت وهي تشعل لمبة الجاز لتبدد بعض ظلام الحجرة مضيفة - في الواقع - ظلالًا كئيبة زادت الجو توترًا:

- كنا قد نمنا.. ثم سمعت صوتًا ينادي (رضا).. (رضا)!.. صوت امرأة قادمًا من الحقل القبلي، نهض هو مصرًا على أن

يرى ما يحدث.. قلت له إنها النداهة يا (رضا).. لا تذهب يا (رضا)، لكنه أصر على أن يذهب.. وها هي ذي النتيجة..
- وهل عاد لك بعدها؟
- كلا.. تأخر كثيرًا.. فخرجت للحقل وحدي حاملة لمبة الجاز، وهناك وجدته واقفًا وحيدًا لا يرد.. عدت به إلى البيت ومنذ تلك الساعة وهو في هذه الحال..
- وهل هو لا يأكل فعلًا؟
- تقريبًا..، أحيانًا أدس الطعام في فمه كالأطفال أو كالبط! ويظل الطعام في فمه دون مضغ عدة ساعات..
- وقضاء الحاجة..؟
- حيث هو..!.

وفجأة - ودون إنذار - انفجرت باكية والدموع تختلط بكلماتها:

- لقد ضاع رجلي!.. لقد انتهى..!.. يا ليته ماخرج.. ياليته ما سمعها.... ماذا أفعل؟.. ماذا أفعل؟

ثم شرعت في هستيريا تسبه على حماقته وتسب الظروف التي جعلته - هو بالذات - ضحية النداهة، ثم تسب النداهة... ثم تسبني أنا نفسي لأنني... لا أدري بالضبط ما ذنبي في الموضوع لكنها رأت أن لي دورًا ما، لا تعرف كنهه ويستحق التوبيخ.. ربما لأنها كانت تفضل أن أكون أنا في مكانه.. ان تمتعي بكامل قواي العقلية هو في رأيها جريمة لا تغتفر... ولا ألومها على هذا..

ثم تهانفت فأجلستها جوار (رضا) وربت على ذراعها..، ما أغرب هذه المرأة.. كل هذه العواطف كانت مختفية وراء مظهرها الصارم المتعالي..

- ماذا أفعل بكوم اللحم الذي تركه لي؟!

الواقع أنها كانت بالفعل في موقف لا تحسد عليه لأن أخي كان رجل البيت بمعنى الكلمة.. يفعل كل شيء ويعرف كل شيء، ومن دونه هي ضائعة تمامًا..

- إنه لم يمت يا نجاة.. لم يمت..

- بل هو ميت فعلًا..

- إنه مريض.. وسيشفى..

- كلا.. أنا أعرف مصير من نادتهم النداهة... سيظل هكذا أسبوعين أو ثلاثة..

وبعد هذا تناديه للمرة الثانية، عندئذ يفارق الدار للأبد ولن يراه أحد بعدها..
- كلا.. لن يحدث هذا وأنا حي... لن يمس أخي بشرّ أبدًا..
ونهضت في تصميم.. وقد تذكرتها هي الأخرى. ..فأكملت:
- ولن يمس زوجة أخي سوء طالما أنا على وجه الأرض..

*   *   *

كان الظلام قد أرخى سدوله على القرية.. والنجوم شديدة الوضوح في السماء كأنها ثقوب في ثوب أسود يغطي الكون، كل الموجودات قد بردت واصطبغت بلون أزرق قاس، ووجوه مكسوة بالظلام تمر

من جواري تقرئني السلام فأرد بعبارات مختلطة وذهني شارد..
ما هي هذه الأعراض؟!
إن هذه الصورة تشابه إلى حد ما أعراض الاكتئاب التفاعلي الحاد أو صدمة عاطفية أو مرضًا نفسيًا ما، لا أعرفه لأني لا أعرف سوى أقل القليل عن هذه الاضطرابات..
وفي تلك الأيام السعيدة لم تكن المخدرات معروفة بصورتها البشعة التي نعرفها اليوم... لهذا استبعدتها على الفور وإن كنت لا أنكر تشابه هذه الأعراض مع تسمم الباربيتيورات المزمن.. لكن أخي لم يكن من النوع الذي يدمن.. ولم يكن سهل الخداع أبدًا..

هل هو مرض عضوي ما لا أعرفه؟.. هل هو جنون ذهولي متقدم؟ هل هو؟.. هل هو؟.. لا إجابة.

هناك شيء واحد أعرفه.. إن واجبي هو أن أجلب بعض زملائي من أساتذة الجامعة ليروه.. وأنا واثق أنهم سيجدون مصطلحًا لاتينيًا من عشرة أحرف على الأقل يسمون به هذا المرض.. وسيصفون بعض الأقراص والحقن تعيد أخي إلى حالته الأولى...

نعم.. كنت أعرف ما ينبغي علي عمله..

❋ ❋ ❋

٣- ثرثرة..

وقفت (نجاة) مذهولة ترقب ما يحدث، في حين وقف أطفالها في استمتاع واضح يراقبون هذا السيرك الذي يدور أمامهم..

وعلى الفراش الخشبي تمدد أخي (رضا) ذاهلًا لا يدري بشيء مما يحدث له، في حين انكب زملائي - علماء الطب - يفحصون كل ملليمتر من جسده القوي..

دكتور (عادل شلبي) أستاذ الأمراض الباطنية قاس حرارته وضغط دمه ووضع ساعة على صدره وبطنه ثم هز رأسه وجمع حاجياته ونهض..

الدكتور (محمود الأسيوطي) أستاذ الأمراض العصبية وخزه بدبوس عدة مرات وضربه بمطرقته مرارًا وتحسس عضلات فكيه ثم ترك المجال للدكتور (محمد ابراهيم) أستاذ الأمراض النفسية الذي أخذ يرمقه في شك، وأخذ يسأل (نجاة) أسئلة محمومة لا ينتظر إجابتها عن أخي. وهل كان يميل للوحدة.. وعلاقة أمي بأبي.. و... و..

ثم جاء دوري فمددت يدي بمحقن عملاق وسحبت من ذراعه عشرة سنتيمترات من الدم وضعتها في أنبوب اختبار به مادة مانعة للتجلط وأصدرت لتلميذي الدكتور (علاء) قائمة طويلة من الفحوص يقوم بها حين يعود لمعمله في القاهرة..

ثم إنني خرجت معهم إلى صحن الدار واجلستهم كيفما اتفق حول أكواب الشاي الأسود التي أعدتها زوجة أخي.. وقلت في حرج:

- إنني أشكركم على مشقة السفر وكل الوقت الذي أضعتموه من أجلي...

قال د. (محمود) وهو يرشف الشاي:

- لا مجاملات بيننا أيها الزميل.. لا مجاملات..

وقال د. (عادل):

- إن هذا هو واجب المهنة.. سكر من فضلك!

ناولته علبة السكر والملعقة، ثم تنحنحت وقلت:

- والآن.. هل كونتم رأيًا ما؟

ساد الصمت برهة.. ثم قال د. (عادل) في كياسة:

- من ناحيتي لا توجد مشكلة.. إنه سليم تمامًا..وجهازه العصبي متكامل.. وهذه ليست أعراضًا نفسية لها اسم**!**

ولكن.. هذا يعني.. إذا زعم هؤلاء الزملاء أنه لا مشكلة هنالك فأنا كفيل بجعلهم يعيشون في مشكلة حقيقية..**!**.

- ولكن.. لا بد أن هناك شيئًا ما خطأ..

قال د. (محمد إبراهيم) وهو يشعل غليونه:

- بالطبع.

- وهذا الشيء له إسم...

- بالطبع..، وهو إلى حد ما يشابه أعراض الاكتئاب أو فقدان النطق

الهستيري لكن ما هو بالفعل؟.. لا يستطيع أحد أن يجزم..

- إذن فمن يستطيع؟

قال وهو ينفث دخان الغليون كريه الرائحة محدثًا سحبًا كثيفة:

- المشكلة هي أننا لا نعرف شيئًا عما سبق هذه الحالة.. الملابسات التي أدت إليها... ولا نملك أية قصة سوى قصة زوجته الملفقة التي يعوزها الدليل العلمي..

ثم أشار إلي بفم غليونه.. وأردف:.

- مثلا هل ستحكي لك هذه السيدة أية صدمة عاطفية سببتها له في تلك الليلة المشئومة؟!.. هل لديها فكرة عن أزماته المالية أو مشاحناته أو هزائمه..!

قال د. (عادل) مكملا الكلام:

- هل تعرف - وهو الأهم - أية عقاقير يتعاطاها؟!

قلت في حنق:

- وهل تجد أية علامات لإدمان مخدر معروف؟.. مخدر لا يؤثر في حدقة العين ولا في الجهاز العصبي ولا في العلامات الحيوية؟

- وهل أنت ملم بكل أنواع المخدرات؟

- على الأقل أعرف منها ما يحتمل أن يوجد في قرية كهذه.. ثم إنني أعرف أخي جيدًا.. إنه لا يدمن ولا يتعاطي حتى الأسبرين، وهو حذر جدًا بحيث لا يمكن أن يدس له أحدهم شيئًا منها في طعامه..

- إذن فالحل الصحيح هو عند زوجته..

تنحنح د. (محمود) معلنًا رغبته في الكلام:

- إذا أردت رأيي.. هل يمكنني الكلام بصراحة؟

- بالطبع..

قال وهو يحاول أن يتحاشى نظراتنا المتشككة:

- أنا لست مستريحًا لهذه المرأة القاسية المتسلطة وأعتقد أنها تمارس لعبة نفسية ما، مع أخيك أدت لتحطيمه بهذه الصورة..

قلت وأنا أمد يدي لكوب الشاي:

- لكنك لم تعرف أخي.. إنه هو رجل البيت بمعنى الكلمة، كل ما في الأمر أنه يحبها ويحاول إرضاءها قدر استطاعته..

- هذا لا يمنع أنها تسيطر عليه..

- ثم إنها الآن في موقف لا تحسد عليه،،، ليس من مصلحتها أبدًا أن يفقد زوجها وعيه خاصة في هذه الأيام..

قال د. (عادل) وهو يعيد كوبه للصينية متمتمًا بعبارة شكر:

- على العموم.. هي مجرد آراء..، والآن علينا أن نتصرف.. لقد حان موعد عيادتي.، وأمامنا رحلة عودة شاقة..!

- ولكننا سنتغدى سويًا..

- كلا.. ليكن هذا في ظروف أخرى إن شاء الله.

وهكذا - وفي صمت - أركبتهم في سيارتي وبدأنا رحلة العودة الشاقة إلى القاهرة، كنت محرجًا منهم فلم أجرؤ أن أصارحهم بأن فحصهم لأخي وآراءهم لم

تزد الأمر إلا سوءًا.. وأن ما قدموه لي لا يساوي ثمن البنزين الذي بددته في هذه الرحلة الرهيبة..

لقد وضعت مشكلتي في أيدي ثلاثة من أساطين الطب في مصر فأعادوها إلي قائلين إنها مشكلتي أنا.. يا له من شعور مرعب!.. إذن فأنا وحدي.. وحدي تمامًا...

وعند مدخل عيادته في باب اللوق نزل د. (محمد ابراهيم) من السيارة وسط بحر من عبارات شكري، واتجه للمدخل.. ثم تذكر شيئًا ما فعاد إلى وانحنى فوق نافذة السيارة هامسًا لي:

- هل تعرف؟!

- ماذا؟

- لو كنت مكانك لفكرت في أسطورة النداهة بشكل أكثر جدية.. ألم يخطر لك أن أخاك قد نادته النداهة بالفعل؟

* * *

عدت للقرية شارد الذهن، وكان الليل قد أرخى سدوله بظلام لم أعتده أبدًا في القاهرة.. ظلام ثقيل لزج يخنق الأنفاس.. ولا يفلح نور كشافات سيارتي في تبديده
وصلت لدار أخي فقرعت الباب.. أدخلتني (نجاة) وقد بدا بعض الشعوب على وجهها وفي لهفة سألتني:
- هيه؟.. ماذا قالوا؟
هززت كتفي في يأس.. ثم قلت في شرود:

- لا شيء.. حالة نفسية لا أكثر..
- ألم ينصحوك بشيئ؟
- أشياء تهم الأطباء فقط.. ولكن لماذا تسألين؟
قالت في لهفة ذات معنى:
- يخيل لي أن هذه هي الليلة..!
- ليلة ماذا؟
- ليلة الرحيل..!
- اسمعيني يا (نجاة).. لن نعود لهذا مرة أخرى..
- لن أتكلم.. تعال للداخل وانظر.
تبعتها في توجس وهي تحمل لمبة الجاز وظلها يسقط خلفها على الأرض طويلًا مهيبًا مرعبًا.. معها دخلت غرفة النوم فلم أجد (رضا) في الفراش..

- إذن أين هو؟!
أشارت بأصبع مرتجفة إلى النافذة.. النافذة المطلة على الحقل القبلي المظلم... هناك كان واقفًا ينظر إلي الظلام في ثبات وظهره لنا، لم يشعر بوجود أحدنا قط... اقتربت منه في تؤدة ووضعت يدي على كتفه فلم يهتز ولم يبد عليه شيء.. وعيناه شاخصتان خرساوان وثمة رجفة في شفتيه كانه يعتزم أمًرا..
- هل رأيت؟.. منذ انصرف الحكماء وهو هكذا..
قلت في ضيق:
- وما هي المشكلة.. إنه مريض لا أكثر...
مصمصت بشفتيها متصعبة.. وقالت:

- كلهم يحدث لهم نفس الشيء.. إنه ينتظر النداء الثاني..

- (نجاة).. لا داعي للتخريف..



اقتربت منه فى تؤدة ووضعت يدى على كتفه فلم يهتز ولم يبد
عليه شىء ..

ثم إنني نهضت إلى حقيبتي التي نسيتها في غرفته، وأخذت منها محقنًا وطلبت منها غليه (في تلك الأيام السعيدة قبل اختراع الإيدز والتهاب الكبد الفيروسي كنا نغلي المحاقن الزجاجية)، ثم كسرت أمبولًا من الفينوباربيتون1 وتناولت ذراعه وأفرغت محتوى الأمبول في وريده.. لم يقاومني كأن الإبرة تخترق عروق شخص آخر..

بعد قليل بدأت جفونه تتدلى وجسده يتراخى، من ثم نظرت إليها في ارتياح.. وقلت:

- ها هو ذا.. سينام نومًا هادئًا حتى الصباح...

- أكيد؟
- طبعًا.. حتى نداهته لن تستطيع إيقاظه..
وتعاونا على إرقاده على الفراش، ثم جمعت حاجياتي وهممت بالانصراف ولم تحاول أن تدعوني للبقاء معه ولم أكن لأقبل لو فعلت..
في الخارج كان الظلام الدامس مخيمًا وصوت حشرات الحقول يتعالى في إيقاع رتيب.. أغلقت باب السيارة وأدرت المحرك... هل هذا الصوت الغريب قادم من المحرك أم ماذا؟!.. كلا.. ليس هو المحرك..
هذا الصوت قادم من بعيد.. من الحقل القبلي.. صوت عميق رقيق كأنه امرأة

تتوجع.. ببطء ومع الضغط على مقاطع النداء..

- رااااح..... رااااح.!.

كلا.. ليس ما تقوله هو هذا.. أوقفت المحرك لأسمع بصوت أوضح نعم.. أكاد أقسم أن هذا الصوت القادم من الظلام.. من الحقول البعيدة التي لا يجرؤ إنسان أن يمشي فيها ليلًا مهما كان معه من مصابيح، هذا الصوت يردد في إصرار محموم:

- (رضا ااااه).. (رضا ااااه)!

❋ ❋ ❋

٤ - مرضى آخرون..

والآن لابد لكم أن تعترفوا بأنني قوي الأعصاب إلى حد غير عادي وأن إيماني بالعلم لا يتزعزع، لأني - ببساطة - بعد أن سمعت ما سمعت ورأيت ما رأيت لم أهتز قط.. وعدت إلى دارنا لأنام..!.

إنني لا أتصور أي أحمق كنته في تلك الأيام...

على أنني في الصباح الباكر لم أنس أن أمر على بيت أخي لأسأل زوجته عن حاله، فقالت وقد أشرق وجهها:

- الحمد لله..

- لم يستيقظ ليلًا؟

- نادته النداهة عدة مرات فكان يتقلب في الفراش لكنه لم ينهض..!.

- رائع!

قالت لي وقد بدا عليها الشرود.

- لماذا لا تعطيه هذا العلاج.. الحقنة.. كل ليلة؟

فكرة لا بأس بها.. لكنها ليست حلًا على الإطلاق، ليس انتصارًا أن يقضي إنسان حياته تحت تأثير الفينوباربيتون حتى لا يسمع صوت النداهة ودعك من انها جريمة.. جريمة أن تدفع إنسانًا للإدمان لمجرد أن تطمئن أنت.. ولكن ماذا نفعل كي لا يهرب!!

ابتسمت في شفقة، وحييتها وانصرفت...

* * *

كما هو متوقع انتشر خبر عودتي للقرية كالنار في الهشيم..، وعلى الفور ازدحم الفناء الضيق لدارنا بأهالي القرية الذين جاءوا حاملين أوجاعهم على أكتافهم والأمهات اللواتي يعاني أطفالهن الإسهال والمراهقات اللواتي يؤرقهن النمش على خدودهن.

الواقع أن كل مخلوق في القرية فتش في جسده عن علة ما تسمح له بالحضور لأفحصه، وبالطبع لم أتذمر ولم أتقاض مليمًا لأن هذا هو حق أهل قريتي الذي لا جدال فيه..

لقد جعلني هذا أتذكر شبابي الأول كطبيب وحدة ريفية..
وفي الحجرة التي على يمين الداخل لدارنا أعددت ما يشبه عيادة خارجية صغيرة، وشرعت أمارس أسرار مهنتي المقدسة في حين أخذت أختي تعد الشاي لعينات منتقاة من الزائرين..
وعند العصر كان ضغط العمل قد ركد.. وكنت أنا قد انتهيت.. فأزمعت الصعود إلى حجرتي للراحة توطئة لأن أذهب لأخي (رضا) ليلًا..
انفتح الباب ودخل ثلاثة رجال يبدو عليهم التردد.. وقال لي أكبرهم سنًا:
- نحن نريدك في زيارة منزلية يا دكتور.
ابتسمت وهززت رأسي:

- هل يمكن تأجيل هذا إلى المساء.. إنني..

- أرجوك..

قالها في صوت عميق أقرب للأمر، وتبادلوا النظرات المريبة فيما بينهم.. هؤلاء الرجال يخفون شيئًا مريبًا، وهو - كالعادة في الأفلام السينمائية - واحد منهم مصاب بطلق ناري في أثناء معركة مع البوليس!.. لكننا لسنا في فيلم سينمائي لهذا حاولت مرة أخرى التملص:

- عندكم الوحدة الصحية، و....

- أي مبلغ تريد..

إنهم مصرون... على كل حال فإن فلاحي الشرقية مسالمون وكرماء.. ولا جدوى هنالك من رفض رؤية مريضهم

هذا لأنهم مصرون كالموت ذاته.. وأنا لا أحب الشجار.. على الأقل مع أهل قريتي..
- إذن هيا بنا. وحملت حقيبتي.. وخرجت معهم..

❋ ❋ ❋

- تفضل يا بيه..
ثمة امرأة تخفي وجهها بطرحة سوداء، وعدد لا بأس به من الرجال جالسون في وجوم وصمت يدخنون ويتبادلون نظرات ذات معنى..، ثم نفس تصميم الغرف الطينية الموجودة في دارنا.. والبط الذي يمرح بحرية تامة..، وكان هناك مدخل كريه الرائحة يقود لغرفة جانبية مفروشة بالحصير، وعلى الأرض تمدد شاب وسيم

في مقتبل العمر يحدق في السقف بعينين لا تطرفان.. سألتهم وأنا أنظر للشاب:

- هل هو المريض؟!

لم يرد أحد تعبيرًا منهم عن بلاهة سؤالي، فقررت أن أزيد الأمر سوءًا بسؤال أكثر سخفًا..

- ماذا به؟

- كما ترى..!

- منذ متى..؟

- أسبوع.

انحنيت عليه فلم أستطع فحصه، اضطررت إلى الركوع جواره وبدأت بمحاولة تنبيهه فلم أفلح.. نفس الأعراض اللعينة.. هل هو وباء يجتاح القرية..؟ مددت يدي لمعصمه لأقيس نبضه فوجدت

شيئًا مروعًا.. حبل من الليف حول معصمه يثبته إلى وتد خشبي مدقوق في الأرض، لقد قيدوا هذا الفتى كحيوان مفترس كي لا يفر.. ويالها من فكرة!

رفعت عيني إلى الرجال الواقفين حولي وسألت:

- هل.. هل نادته النداهة؟!!

تبادلوا نظرات التقدير لي، ثم قال أكبرهم وقد انبسطت أساريره:

- أمه تقول هذا.. لقد سمعتها..

- ولماذا استدعيتموني إذن؟

- كي تثبت هذا أو تنفيه..

أثبت هذا؟.. وكيف أثبت هذا وأنا لا أصدق منه حرفًا؟! وفي أي كتاب علمي تجد وصفًا دقيقًا لأعراض مرض

(النداهة)!!.. تأملت الفتى المقيد في رهبة.. إنها أسطورة مرعبة.. وفكرة هذا القيد البشع تزيد الرعب، جالت بخاطري رحلة (أوليس)2 حين كان عليه المرور أمام صخرة عرائس البحر اللواتي يفتن غناؤهن البحارة فيرمون بأنفسهم في الماء ليغرقوا.. اضطر (أوليس) إلى تقييد نفسه ورفاقه بالسلاسل إلى صواري السفينة حتى لا يلبوا نداء عرائس البحر الفاتن... إن السلوك البشري الأسطوري يتشابه في محافظة الشرقية وفي بلاد الإغريق!!

ما علينا..

واصلت فحص الفتى..، وعريت الجلباب عن بطنه فوجدت شيئًا ما.. آثار أنياب حادة مزقت اللحم أسفل الصرة لكنها

التأمت تمامًا.. وهكذا بدأت أفهم ما هنالك..، سألت الرجال في حذر:

- هل يشرب؟

- لا.. إنه يرفض الماء تمامًا..

- إذن هاتوا لي بعض الماء..

جروا - في حماسة مبالغ فيها - ليحضروا لي قلة الماء..، ناولوها لي في شك مندهشين من تحمسي للشرب في هذه الظروف..

أمسكت بالقلة وقربتها من وجهه ثم بدأت أسكب الماء ببطء أمام عينيه المذعورتين.. وكما توقعت بدأ وجهه يتقلص.. نظرة سريعة في عينيه.. صرخة صامتة على شفتيه..، ثم نهض جالسًا وهو يعوي ويئن كالذئب الجريح..

أبعدت القلة عنه وشرعت أهدئه..
نهضت وجمعت حاجياتي في صمت، ثم أشرت لأكبر الرجال كي يتبعني للخارج، وهناك أمام عيون كل الواقفين قلت له:
- ليس هذا نداء النداهة يا حاج..
- إذن ما هو؟
- إنه مصاب بالكلب.
- الكلب..؟!
- نعم.. حيوان مسعور عضه في بطنه منذ بضعة أيام[3]!
- لم يحدث...
- بل حدث، ولربما تجاهل هو الأمر ولم يأخذ المصل المضاد لذلك..، والآن هو في مراحل المرض الأخيرة..
- وموضوع الماء؟

- هذا المرض كان يسمى قديمًا بمرض (خوف الماء) لأن المريض يهتاج من صوت الماء أو منظره ويتشنج بهذا الشكل الشنيع، وكذلك تيارات الهواء تحدث تقلصات بلعومية شديدة..

وأشعلت سيجارة مستطردًا وشاعرًا بالفخر من نفسي:

- وهذا الذهول هو عرض التهاب المخ المصاحب للمرض.

لم يبد عليه أنه فهم حرفًا مما قلت.. ولم يكن يعنيه أن يفهم، كل ما كان يريده هو أن يعرف: ماذا يفعل؟

- يجب نقله فورًا إلى إحدى مستشفيات الحميات بالزقازيق...

- ولكن..

- فورًا.... إن احتمال نجاته لا يتعدى النصف بالمئة لكن يجب أن نحاول..
- ولكن..
- فورًا..!.. إن حياة هذا الفتى بين أيدكم الآن..
قال أحدهم في فظاظة وتحد.
- لكن أمه سمعت النداهة يا دكتور..
التفت إليه في غيظ وصحت::
- إذا اعتقدتم في وجود النداهة فهذا شأنكم، لكن هذا الفتى مسعور.. هل تفهمون هذا؟.. ولن يعيش ليرى صلاة الجمعة القادمة!
- والعمل؟
- سبحان الله!.. قلت لكم مستشفى الحميات!

ودارت مناقشات جانبية شديدة الحمق والغباء..، من الواضح أنهم لن يأخذوه لأي مكان وأنني سأضطر إلى إبلاغ المركز عن احتجازهم لمريض في حالة خطرة، لكنني - في قرارة نفسي - وددت لو كان بإمكاني أن أجد تفسيرًا لحالة أخي بهذه السرعة والسهولة.. أعرف أن أحدًا لم ينجو من مرض الكلب في تاريخ الطب حتى اليوم، لكن رغبتي في إيجاد حل لمشكلة أخي كانت شديدة الإلحاح.

انتهت المناقشات، من ثم تقدم أكبر الرجال إلي وصافحني في حزم:

- شكرًا يا دكتور.. والآن كم أتعابك؟!

طلبت رقمًا فادحًا لأنني أحسست أن من واجبي أن أنتقم من هؤلاء الحمقى إلا أنه

دفعه عن طيب خاطر، وأمر أحدهم كي يرافقني إلى داري، قبل أن أنصرف قال لي:

- أنصحك أن تؤمن بالنداهة لأنها لا تنادي إلا من لا يصدقون وجودها!!

❋ ❋ ❋

٥ – الدكتور (عاصم)..

كان الوقت يقترب من السابعة مساء حين اتجهت بسيارتي للوحدة الصحية في قريتي، وهي مبني عتيق متهدم كادت

الرطوبة تأتي على جدرانه، واحد من مئات المباني المماثلة على شكل حرف (ت) الإنجليزي تملأ ريفنا الطيب، وتقدم للفلاحين خدمات محدودة جدًا..

لم يكن هنالك عمال ولا خفراء من ثم صعدت في السلم المتحطم إلى الطابق العلوي حيث سكن الطبيب، وقرعت الباب في كياسة..

- لحظة.

وسمعت خطوات بالداخل، ثم انفتح مزلاج حديدي.. وتبدي لي وجه الطبيب في ضوء مصباح الجاز الذي يحمله.. كان شابًا في منتصف العقد الثالث من عمره لكن شعر رأسه قد زال أو كاد.. وعلى عينيه نظارة سميكة جعلت جفونه تبدو

أصغر وأضيق مما هي عليه، وكانت ذقنه نصف نامية..

- أفندم؟

قمت بتعريفه على نفسي.. فابتسم لي في مودة، ودعاني للداخل وهو يصيح:

- عرفت الآن لماذا لم أر مريضًا واحدًا في هذا اليوم اللعين!

وقادني إلى غرفة نظيفة بها فراش جواره بعض الكتب والمجلات، وموقد كيروسين عليه وعاء شاي آخذ في الغليان، وعلى الحائط تحرك برص صغير أزعجته أصواتنا!، من الواضح أن الطبيب كان راقدًا في الفراش يقرأ حين أتيت..

في حرج أزاح جزءا من الملاءة ليسمح لي بالجلوس على الفراش، ثم شرع يزيد

كمية الشاي في البراد، وخلع شبشبه وتربع جواري على الفراش وهو يسب عمال الوحدة سبابًا مقذعًا لسبب لم أفهم ما هو، الخلاصة أن استقباله كان شديد المودة على قدر إمكانياته..

قال لي..

- أنا الدكتور (عاصم فتحي).. هذا ثالث عام لي في هذه القرية.. إنني سمعت عنك يا دكتور (رفعت) الكثير.. الكثير جدًا..

هززت رأسي في تواضع وقلت:

- لقد جئت لاستشارتك في أمر صغير..

ضحك في سرور:

- الأستاذ العظيم يطلب استشارتي.... يالي من محظوظ!

قلت في جدية:

- الأمر جد لا مزاح فيه.
- وما هو؟
حكيت له قصة مريض الكلب وموقف أهله، ثم سألته:
- ما هو التصرف الإداري في حالة كهذه؟!
نهض ليصب الشاي في كوبين محدثًا قرقرة محببة للنفس.. وقال:
- كم ملعقة سكر.. اثنين؟.. حسن.. كنت أقول إن التصرف الصحيح هو إبلاغ المركز ويتم ترحيل المريض إلى مستشفى الحميات وعمل محضر لأهله..
هذا هو الحل الصائب.. ولكن..
- ولكن ماذا؟
نظر لي نظرة حادة وهمس:

- هل تتوقع فائدة ما من هذا؟!.. مريض كلب في آخر مراحل المرض..

- وما معنى هذا..؟

- معناه أنك ستسبب مشاكل لا حصر لها لأهله، كفاهم ما هم فيه..

- وتتركه يموت؟

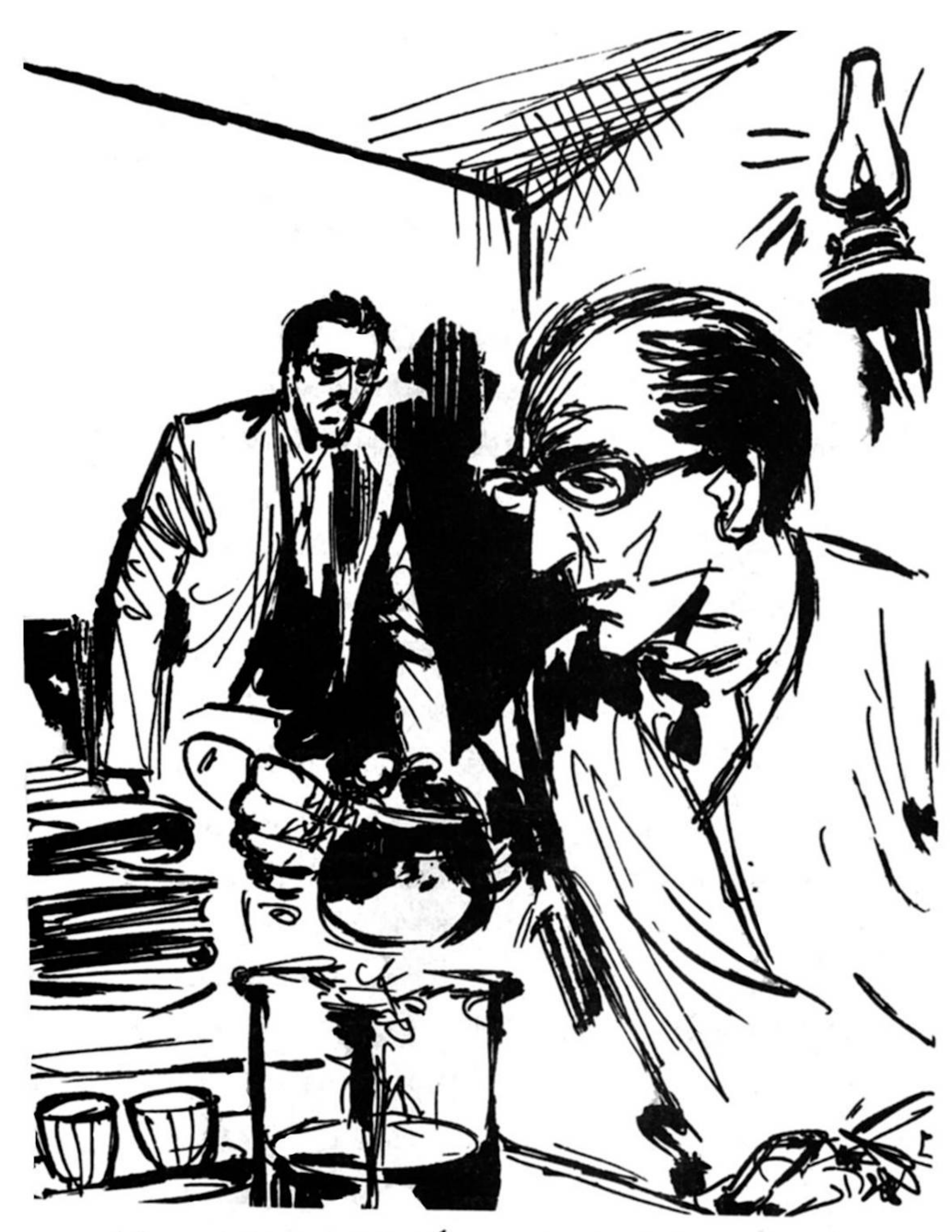
- إنه سيموت على كل حال... أنت - كما يقولون - ابن القرية لكنك لا تعرفها..

و ناولني كوب الشاي، ثم تنهد.. وأردف:
- في الريف يجب أن يتحلى المرء بشيء من المرونة.. إن لهذه القرية قانونها الخاص غير المكتوب..

تأملت الغرفة حولي مفكرًا.. إن في كلام هذا الفتي شيئًا من المنطق لكن مشكلتي لم تنته بعد... قلت له وأنا أرشف الشاي:
- هل سمعت عن النداهة؟

هز رأسه.. وشبح ابتسامة تتلاعب على ثغره. .واصلت السؤال:
- هل قابلتك حالات مماثلة؟!

ازدادت الإبتسامة اتساعًا.. ثم إنه نهض إلى مقعد خشبي صغير جوار الفراش



نهض ليصب الشاى فى كوبين محدثًا قرقرة محببة للنفس .. وقال :
ـــ كم ملعقة سكر ؟..

تكدست عليه الكتب والأوراق، وتناول كراسة صغيرة مهترئة الغلاف.. وعاد للفراش..، وقال:

- سأريك الآن شيئًا لم يطلع عليه أحد من قبل.

- وما هو؟

- إنها كراسة مذكراتي..

وشرع يقلب الكراسة.. أوراق عديدة بخط صغير أنيق مليئة بكلام فارغ.. رسوم لوجوه فتيات، وأبيات شعر. .وكلام عن ألمه وعذابه وندمه على أشياء كثيرة لا يهمني أن أعرفها.. يا للكارثة... من المستحيل أن يقاوم إغراء قراءة كتاباته على أذني العجوز المنهكة.. فلقد ألقى إليه

القدر بمستمع معتوه في الثامنة مساء وهو لن يتركه يفلت أبدًا!

إلا أنه لم يتل علي شيئًا لحسن الحظ.. بل قلب الكراسة إلى صفحتين في المنتصف.. وشرع يقرأ وهو ينظر إلى من حين لآخر:

- في أكتوبر ٦١ أصيب (الزغبي فرحات) وهو فلاح في السادسة والثلاثين من عمره بمرض غريب. .الأعراض: شرود تام، وانفصال عن الواقع.. لا يأكل ولا يشرب ولا يتكلم..

الفحص: كل العلامات الحيوية سليمة.. الحالة العصبية سليمة.. لا توجد علامات لعقاقير مخدرة من أي نوع..

الأبحاث: السكر ووظائف الكلى والسائل النخاعي الشوكي على ما يرام..

تاريخ الحالة: يزعم أمل المريض أنهم سمعوا نداء امرأة يدعوه باسمه قبل ظهور الحالة بدقائق..

في نوفمبر ٦١ نام أهل البيت، وحين استيقظوا لم يجدوا المريض في البيت ولا في أي مكان..

ثم إنه قلب الصفحة إلى صفحة أخرى.. ورشف جرعة من الشاي.

- في فبراير ٦٢ تتكرر القصة مع (سعيد جابر).. عامل بناء في الخامسة والعشرين.. نفس الأعراض.. وكل شيء..

في مارس ٦٢.. حادثة مماثلة تحدث لـ (إبراهيم السقا).. مراهق في الثالثة عشرة من عمره..

في أبريل ٦٢.. (رضا إسماعيل)، فلاح في الرابعة والثلاثين.. هو في غيبوبة الآن لكنه لم يفر بعد..

في كل حادثة من هذه الحوادث ذكر أهل المريض اسم النداهة..

ما هي النداهة؟!

النداهة هي إحدى الشخصيات المرعبة في الأدب الشعبي، وهي - كما يجمع من وصفوها - غولة تتنكر في شكل أنثي حسناء.. تتجول ليلًا في الحقول المظلمة وتنادي شابًا بعينه باسمه مرارًا، ما إن يسمعها الفتى حتى يهرع للحاق بها على الرغم من أهله، فإذا مالاقى الفتاة وارتمى في أحضانها تحولت لغول ضخم يلتهمه حتى العظام..

توجد شواهد عدة على وجود كائن له هذه المواصفات..

(محمد أمين) – فلاح عمره خمسون عامًا - شاهد في حقله ليلًا امرأة طويلة القامة تسير في تؤدة وتنادي: (زغبي).. (زغبي)!.. وهو يقسم إنها كانت تشع بلون أخضر مخيف، طبعًا لم يجرؤ على أن يذهب إليها بل عاد لبيته ليتدثر بأغطيته ويتلو الأدعية..

(السيد الشرقاوي) - بقال القرية - في أثناء عودته ليلًا جوار الترعة شاهد فتاة حسناء تمشي فوق مياه الترعة ولا تغرق به..

(أحمد عباس) - فلاح - سمع صوت نداء امرأة يردد: (ابراهيم).. (ابراهيم)! فهرع

ليرى ما هناك، وجد امرأة واقفة في الحقل وحدها.. اتجه ليسألها عما تريده من (ابراهيم).. استدارت له ببطء.. يقول إنه رأى أجمل وجه رآه في حياته لكن.. حدقتيها..، كانتا حمراوين بلون الدم، وأن العالم كله دار به حين رأى المشهد.. ولم يدر إلا وشقيق زوجته يحمله إلى داره مغشيًا عليه من هول ما رأى..

الطفل (صبحي محمود) - ٩ سنوات - شاهد امرأة تعبر حقل أبيه ليلًا في ضوء القمر دون أن تترك ظلاً..

قلت في سخرية: - إنه طفل قوي الملاحظة حقًا..

لم يبد على الدكتور (عاصم) أنه لاحظ سخريتي، وواصل القراءة:

- في كل الحالات كان هناك نداءان.. الأول يودي بالمريض إلى حالة الذهول، والثاني هو النهائي الذي يختفي بعده.. الفاصل بين الندائين هو أسبوع إلى أسبوعين..

بعض أهالي القرية يقيدون (المندوه) لمنعه من الاختفاء، وبعضهم يحرسون المريض حراسة محكمة.. لكن هناك لحظة ما من الإهمال أو النوم لابد أن تحدث.. عندئذ ينتهي كل شيء ويفر (المندوه)..

- ألم يحاول أحدهم مطاردة صاحبة الصوت؟

- بالطبع لا...لأن الأسطورة حية في نفوسهم، وهم واثقون أن من يعوق النداهة عن أداء عملها سيكون فريستها القادمة!

و رشف ثمالة الشاي من كوبه.. وقلب الصفحة:

- هناك عدة احتمالات لهذا الذي يحدث.. الاحتمال الأول: هو أن النداهة كائن حقيقي..

- احتمال غير مقبول..

قال لي وهو يضع الكوب جانبًا ليغير وضع جلسته:

- أوافقك على هذا.. لكنه الاحتمال الوحيد بعد استبعاد الاحتمالات الأخرى.. وهي سخيفة كما سترى..

الاحتمال الثاني: أنه وباء لا نعرفه اجتاح القرية وأعراضه نفسية تمامًا مثل وباء الكورو4 في وسط افريقيا، وفي هذه الحالة

فإن الأمر يستدعي إبلاغ من هم أقدر منا، كمنظمة الصحة العالمية أو النمرو5..

الاحتمال الثالث: هلوسة جماعية أصابت الكل.. وهو احتمال عسير وصعب التصديق.. لكنه أفضل من الاحتمال الرابع..

الاحتمال الرابع: أن هناك عدة جرائم قتل نظيفة تمت باستغلال هذه الصورة الأسطورية وأن هناك قاتلًا عبقريًا قام بزخرفة جرائمه بحيث لا يتطرق الشك إلى أحد أن هناك نداهة حقيقية..

قلت له متثائبًا:

- لقد أجدت عرض الحقائق.. لكنني أعتقد أن الأربعة الاحتمالات كلها خيالية ومتناقضة..!.

- الاحتمال الخامس: هو أن لكل حالة تفسيرًا على حدة.. فالحالة التي رأيتها اليوم كانت مصابة بالكلب، ربما كانت الحالات الأخرى تعاني أشياء أخرى لم أعرفها

نظرت لساعتي.. كانت التاسعة تمامًا.. وتذكرت أخي.. إن ما يجول بخاطري الآن هو شيء واحد.. أن أذهب إليه لأقيده في فراشه وأريح دماغي مما قد يكون وما قد يحدث..، أن عرض الطبيب لمعلوماته كان جيدًا منظمًا لكنه لم يقدم لي الكثير... وتأملت الكتب التي وضعها جوار الفراش على الكرسي.. يا لها من مجموعة غريبة.. كتاب (كفاحي) لأدولف (هتلر).. وبعض كتب (نيتشه)6.. ومجموعة من روايات الخيال العلمي.. وبعض المجلدات

الطبية أكثرها عن علم العقاقير.. وأربعة دواوين شعر..

نظرت له وقلت:

- شكرًا على عرضك المشوق وعلى استقبالك، لا بد لي أن أنصرف..

- لكننا لم نتحدث بعد..

- فيما بعد.. لقد كان يومي شاقًا...

- نعم.. أعلم هذا وآسف له..

- على كل حال ستجدني هنا مرارًا..

- وكم من الوقت ستقيم هنا؟

- الواقع أنني لا أدري..

و هرشت رأسي في تعب، من الغريب أن هذا هو يومي الثالث فقط في القرية.. كأنه دهر!... قلت في إنهاك:

- المفروض أن إجازتي من الجامعة هي أسبوعان.. إلا أنني سأظل هنا حتى أعرف كل شيء عن أخـ....

وقبل أن أخبره بقصة أخي دق الباب في إلحاح... تركني واتجه ليفتحه حاملًا المصباح، وظللت وحدي في الظلام أسمع محادثة هامسة بينه وبين ما يبدو أنه أحد عمال الوحدة وقد عاد من جولته في الخارج..، بعد دقيقة عاد لي والمصباح يلقي ظلالًا مرعبة على وجهه.. وقال:

- هذا (مصطفي).. خفير الوحدة، يعتذر عن اضطراره للنزول إلى القرية لأن أهلها نادوه للبحث عن شخص ما معهم..

- شخص مختف آخر؟!

- بالفعل.. وأنت تعرفه جيدًا.

أخي (رضا)!.. هل حدث هذا.. ولكن الطبيب لا يعرف بعلاقته بي.. ولم يربط لحظة بين اسمي (رفعت إسماعيل) و(رضا إسماعيل)... إذن من هو ذلك المفقود الذي أعرفه أنا جيدًا..؟!

- هل تذكر الفتى المسعور الذي رأيته عصر اليوم؟

- بالطبع..

- حسن.. لقد لبى نداء النداهة منذ ساعة!!

❋ ❋ ❋

٦ - أين هي؟!

حين عدت لدارنا في ساعة متأخرة من الليل بدت أمي قلقة من منظري المشوش المضطرب، وشرعت أختي - بعينين حمراوين من أثر السهر - تسألني عما هنالك.. حتى أنهما جعلتاني أقسم أن شيئًا ما لم يصب أخي (رضا).. أكدت لهما أنني منهك لا أكثر..

وفي غرفتي المتواضعة بجدرانها المطلية بالجير الأخضر جلست أدخن واتصفح كتبي التي لم يمسها أحد منذ أيام مراهقتي.

يا للهزيمة المروعة التي تلقاها تشخيصي بعد أقل من أربع ساعات! لقد فرّ الفتي

ملبيًا نداء النداهة، وبالطبع يقوم أهله الآن بتوجيه اللعنات إلى ذلك الحمار المغرور - الذي هو أنا - الذي زعم أن ابنهم مسعور وبالتالي جعلهم أقل حذرًا في تعاملهم مع الفتى... أنا لا يضايقني أن يقال إنني لا أفقه شيئًا، فلطالما قيل ذلك لكني أكره أن تنهزم الحقائق العلمية على يدي وبهذه القسوة..

حين نادى (كوخ).. العبقري الألماني بأن مرض الكوليرا تسببه باكتيريا واوية تحداه أحد خصومه وشرب مزرعة كاملة من باكتيريا الكوليرا أمام الشهود - مزرعة تكفي لقتل مئة رجل - فلم يصب بشيء ولا حتى عسر هضم[7]!!، وهكذا قُهر العلم لأسباب لا يمكن تفسيرها!

نفس الموقف يتكرر معي على نطاق أضيق..

أنا أعرف أن التهاب المخ المصاحب لمرض الكلب يسبب جنونًا مؤقتًا.. وقد يفر المريض من ذويه، لكن هذا يحتم أنهم سيجدونه ميتًا في مكان ما بالقرية خلال أربع وعشرين ساعة.. فإذا لم يجدوه فمن يقنعهم أن ما حدث هو أمر لا دخل للنداهة فيه؟!

يا للحيرة..!..

* * *

في الصباح ذهبت - محمر العينين مشوش الشعر - للاطمئنان على أخي،

فتحت لي (نجاة) الباب.. فما إن رأتني حتى ابتسمت في تشفّ.. وهتفت:

- سمعت أن ابن أبي عبد الرازق قد نادته النداهة أمس..

قلت لها في ضيق معاتبًا:

- الناس تقول صباح الخير أولا..

واصلت الكلام في قسوة:

- يقولون إنهم أرادوا رأيك لكنك قلت أن حيوانًا مسعورًا عضه..

- حتمًا؟

- أي أنك لم تعرف..

- هذا يدعو للفخر..

ونظرت في عينها.. وضغطت على أسناني، ثم تمتمت:

- (نجاة).. ماذا تريدين.. ما الذي يسرك في هذه القصة إلى هذا الحد؟!

هل أنت سعيدة إلى هذه الدرجة لفشل أخي زوجك؟!

شدهت لفترة.. ولم تدر ما تقول، من ثم خفضت رأسها ودعتني للدخول..

- لا مؤاخذة... كنت أتحدث من غلبي...

وهشت الأولاد الذين يلعبون من طريقي وأردفت:

- أنت لا تصدق.. ولهذا قلت ما أقول.. لا مؤاخذة!

ودخلنا غرفة أخي، وكان كل شيء كما هو سوى أنها فعلت الشيء الذي كنت أريد أن أفعله.. ربطت معصمه في عمود

السرير بإشارب من الحرير.. وكان نائمًا مفتوح الفم، وقد بدا منهكًا إلى أقصى حد..

قالت (نجاة) مفسرة:
- ظل طوال الليل ينهض ويتقلب ؛ لهذا اضطررت لتقييده.. ظلت الملعونة ثلاث ساعات تناديه أمس..
- وهل (رضا) عاجز عن فك هذا القيد الحريري؟
- إنه ضعيف جدًا.. ألم تلحظ هذا**!!**.. ثم إن مخه مشوش ولا يستطيع حتى معرفة كيفية فك هذه العقدة..
- والفتى إياه.. إبن أبي عبد الرازق.. لقد كان مقيدًا..
- كلا.. لقد فكوا ذراعه على كلامك، تركوا الغرفة خمس دقائق ليتفقوا على ما



ربطت معصمه فى عمود السرير بإشارب من الحرير .. وكان نائمًا مفتوح الفم ، وقد بدا منهكًا إلى أقصى حد ..

يفعلون.. حين عادوا للغرفة لم يجدوه ووجدوا النافذة مفتوحة..

ثم دمعت عيناها.. وهمست في غيظ:

- وأنت قلت إن حيوانًا مسعورًا عضّه!

* * *

قال د. (عاصم) في ثقة:

- إن رأيك العلمي لا يقبل الشك، إن الحمى المخية جعلته يهرب، ولكن كيف تقنع هؤلاء الحمقى؟!

كنا جالسين في غرفته بالعيادة، غرفة الفحص.. وكان زحام المرضى قد بدأ يقل.. وكان وجهه في نور الصباح أكثر بشاعة مما رأيته ليلًا.. كأنه بومة عجوز متشككة ترتدي المعطف الأبيض..

فقلت له في شرود:
- عندي فكرة ما..
- ما هي؟
- أنت مهتم بهذه الأسطورة مثلي تمامًا..
- طبعًا..
طرقت المنضدة بمجمع قبضتي، وصحت:
- نحتاج إلى الكثير من الصبر والتأني..
- لا أفهم..
- قلت لي بالأمس أن هناك مريضًا لم يلب نداء النداهة..
- نعم.. واسمه (رضا إسماعيل)...
لماذا لم أخبره أن المدعو (رضا إسماعيل) هو أخي؟!.. لا أدري.. إنه حافز خفي لا أدريه جعلني أفعل هذا..، نفس

الحافز الذي جعلني لا آخذ حقائبي إلى بيت الدكتور (ريتشارد كامنجز) في يوركشاير.. وهو نفس الحافز الذي جعلني أقرر المبيت في الحانة القذرة في تلك القرية الرومانية البائسة، وقد أقسمت - منذ زمن بعيد - أن ألبي دائمًا تلك الحوافز الغامضة لأنها تصيب دائمًا..

قلت له:

- سنقوم بترتيب أنفسنا..، ستوزع نوبتجيات سهر تقوم فيها بمراقبة المنطقة المحيطة بداره... وإذا ظهرت هذه النداهة المزعومة تلقي القبض عليها فورًا..!.

نظر لي لحظة ليرى إن كنت جادًا.. ثم هرش صلعته مفكرًا.. وقال:

- إنها خطة مرهقة..!

- بالفعل.. لكني لا أتوقع أن يدوم انتظارنا أكثر من ليلتين..
- وحالات الطوارئ الليلية؟!
- يمكنك أن تخبر عاملًا تثق به بمكانك بحيث يستدعيك إذا ما اقتضى الأمر ذلك..
أخذ يفكر قليلًا.. وفي هذه اللحظة دخلت ممرضة حسناء الغرفة حاملة زجاجة صغيرة بها ترمومتر.. وما إن رأتني حتى هزت رأسها محييةً إياي والتفتت إلى الدكتور (عاصم) قائلة بصوت مبحوح:
- لقد انتهت آخر الكشوف يا (عاصم)..
يا (عاصم)؟.. وإزاء نظرة الدهشة التي ارتسمت على وجهي هش وجه الدكتور (عاصم) وأشار للفتاة قائلًا:

- معذرة.. لقد نسيت أن أقدمها لك.. (عواطف) زوجتي..!.
ثم عاتبها باسمًا:
- (عواطف)..كم مرة قلت لك ألا تناديني باسمي مجردًا أمام ثالث..؟
ضحكت في دلال وقالت بلهجة قروية جريئة وهي تتحسس رقبتها:
- إنني أعرف د. (رفعت) جيدًا.. إنه ابن القرية وليس غريبًا..
هززت رأسي محييًا إياها بما معناه (تشرفنا).. ثم سألتها:
- هل تعرفين أسرتي؟
- ليس تمامًا.. إنني أصلًا من فاقوس..
شيء غريب!.. لم يجل بخاطري أبدًا أن الرجل متزوج..، أن منظر غرفته التي

شهدتها بالأمس ومنوال حياته يوحي بالعزوبة.. وأين كانت زوجته ليلة أمس حين كنت عنده؟!.. ثم إن لدى بعض التحفظات على زيجة كهذه قد لا تمنح أقصى درجة من التكافؤ الثقافي والاجتماعي.. لكن مالي أنا وهذا؟.. إنهما سعيدان.. وأنا أفهم ما تفعله الوحدة في النفوس..، على الأقل هو قد أكمل وجوده الفسيولوجي، أما أنا فما زلت طفلًا يلهو جوار بركة الحياة قاذفًا فيها حجرًا من وقت لآخر لكنه أبدًا لا يجد الشجاعة ليسبح فيها..!.

قال د. (عاصم) وقد خمن نصف ما أفكر فيه:

- إنها بنت حلال.. تفهمني تمامًا ولا أرضى عنها بديلًا..
ثم قال وقد خمّن النصف الآخر:
- أمس كانت قد نزلت القرية لإجراء ولادة عاجلة، انهم هنا يفضلون أن تقوم قابلة أو ممرضة بذلك..
- لهذا لم أرها ليلة البارحة..
- ولهذا أغلقت مسكن الممرضة تمامًا لأننا نعيش سويًا في سكن الطبيب.. لقد صارت هذه الغرفة الضيقة بيتنا الفاخر..
مددت يدي أعبث بالترمومتر الذي في الزجاجة.. ثم قلت:
- إذن متى يبدأ مشروعنا الصغير..؟
- الليلة إذا أردت!

*   *   *

- إنه الليل...

مرة أخرى يعود هذا الكيان الغامض الأسود المليء بالأسرار... في غرفتي أرتدي ثيابي استعدادًا للحاق بالدكتور (عاصم) عند الوحدة الصحية، ارتديت حذاء خفيفًا ووضعت في جيبي مصباحًا كهربيًا، وتأكدت أن معي من السجائر ما يكفي لسهرة طويلة قاسية..

ثم إنني فعلت الشيء الذي لم أكن أعتقد أنني سأفعله أبدًا.. من بطانة حقيبة الكشف أخرجت مسدسي الصغير الذي قمت بترخيصه بعد مغامرتي مع الكونت

(دراكيولا)... وتأكدت من حشوه ثم دسسته في جيبي..

أما الخطوة التالية - وهي الأهم - فكانت أنني أخذت المصحف الصغير الذي أعطتني إياه أمي، ووضعته في جيب البدلة الداخلي..

لقد استعددت لكل شيء..

❋ ❋ ❋

٧ - المقابلة

عند الوحدة الصحية الجاثمة كشبح أسود في الظلام قابلته... كان واقفًا وقد ارتدي (بول أوفر) أسود عالي الرقبة، لا أحب كثيرًا قضاء الليل مع هذا الخفاش الأصلع لكن لا مفر لي.. إن زوجين من الأعين هما - حتمًا - أفضل من زوج واحد حتى إذا كان كلانا ينظر للعالم من خلف زجاج نظارة سميكة..

- هأنذا.- !.

صحت به، فوثب في مكانه هلعًا وشرع يبسمل ويحوقل... يا لك من أبله! إننا لم نبدأ بعد... وما إن تعرف علي حتى وجه

ضوء البطارية إلى وجهي وشرع يضحك في هستيريا مرددًا..

- لقد ظننتك هي..!

- هذا هو ما نريده بالفعل..

- لكم أنا سعيد أنك لست هي..!

- د. (عاصم)..

- نعم أيها الزميل..

- إن كوني لست هي لا يعطيك الحق في إصابتي بالعمى بهذا الكشاف!

استدرك معتذرًا، وأطفأ الكشاف وقد بدا عليه الخجل، وبدأنا في صمت السير على الطريق الترابي المؤدي إلى دار أخي.. كان قد وصفه لي بدقة صباح اليوم وتظاهرت بأنني أجهله، وبعد دقائق بدأ

صوت لهاثنا يتعالى فلم يكن واحد منا يتمتع بلياقة طيبة..

لا أحب كثيرًا هذا الصمت المريب..

ومن بعيد لاحت لنا دار أخي..، كئيبة حزينة مسربلة باللون الأسود.. نظرت له وهمست مشيرًا إلى الجهة الغربية:

- فلتتوغل أنت في هذه المزروعات وانتظر هناك..

- وأنت..؟

- إذا حدث ما يريب عليك أن تصدر صوت البومة. .وإذا كان الخطر داهمًا فلا عليك.. اصرخ..

- وأنت؟

- سأتوغل أنا في حقل الذرة القبلي.!!.

* * *

الحقل القبلي هو المكان الذي سمعت منه ذلك الصوت ينادي أخي.. توغلت بين أعواد الذرة التي تتجاوز بارتفاعها قامتي.. صوت خرفشة الأوراق الجافة وأشياء قاسية كنصل السكين تخدش وجهي، سيكون من الصعب رؤية أي شيء من هذا المكان.. حتى ولو كان هذا الشيء على بعد سنتيمترات من وجهي.

ظللت أتوغل وأتوغل حتى وصلت لمساحة خالية في الحقل فتوقفت وقد تسارعت دقات قلبي من الانفعال... رفعت رأسي للسماء فرأيت النجوم واضحة مميزة كما أراها من قبل.. ومن بعيد

استطعت أن أرى بيت أخي وحيدًا بائسًا مسربلًا بالظلام..
لم يكن هناك قمر.. وأنا أفضل ذلك، لأن الظلام الدامس لا يخيف.. إن ما يثير الهلع هو الأضواء الخافتة الظلال لأنها تثير الخيال، تذكرت قصة الغرفة الحمراء لـ (هربرت جورج ويلز).. حين كان على البطل أن يقضي ليلة سوداء في غرفة مسكونة بالأشباح، وقد أضاء شموعًا كثيرة لتؤنس وحدته لكنها زادت رعبه حتى كادت تودي به للجنون حين كان عليه أن يواجه الظلال التي يحدثها انطفاء شمعة من حين لآخر!
نعم.. أنا أفضل الظلام الدامس بلا شك.. الظلام الدامس المتجانس المسطح.. إن

إيقاد شمعة أو مصباح خافت أو ضوء القمر الشاحب لكفيل بأن يجعلني أموت هلعًا..

ومضت الدقائق..

افترشت الأرض وجلست القرفصاء.. والآن هو ذا عيبي الأساسي الذي لم أتخلص منه أبدًا والذي لم يخطر لي على بال.. الملل..، تبًا لهذه النداهة الكسول.. ما ذنبي أنا كي أقضي ليلتي بانتظار اللحظة التي ترأف فيها تلك الملعونة بحالي وتأتي من عالمها الجهنمي لترعبني؟!...

إذا لم تفعل ذلك الآن فلا داعي لتفعله أبدًا..

***

مضت ساعتان..

المشكلة في هذه المسوخ المرعبة أنها لا تأتي أبدًا حين تريدها..

والآن يغفو (رضا) في فراشه غير عابئ بشيء، وتنام (نجاة) جواره تفكر في مصيرها من بعد رحيله ؛ وكل القرية نائمة لا تدري شيئًا عن المخبولين الذين قررا قضاء الليل في الحقول دون مبرر..

أشعلت سيجارة وطفقت أدندن..

لا أدري لماذا تذكرت هذا اللحن الحزين في هذه اللحظة بالذات:

فين الولد يا مّه؟ قالت نسي أهله

كان اللحن مناسبًا للموقف لكنه خرج من فمي غليظًا أجش كأنه نذير، ولقد أثار

رجفة في عروقي أنا نفسي..، ما الذي جعلني أتذكره؟!
وهنا..
انتابني شعور غريب بأنني لست وحدي، في مجال بصري لمحت شيئًا ما.. أدرت وجهي في بطء تجاه هذا الشي.. فلمحت ما يشبه فتاة طويلة مسربلة بثوب طويل أسود تسير في تؤدة على بعد خمسة أمتار من في خفة كأنها (تسري) ولا تمشي.. لا يوجد أي نوع من الانبعاج تحت ثوبها يوحي بحركة القدمين..

فات البلد لمّا   الغولة نادت له

لما تدر وجهها لي كأنها لا تراني أساسًا..، وفي هذا الظلام لم أكن لأراها

حتى لو نظرت لي... أحسست بعمودي الفقري يتجمد وقلبي يكاد يثب في حلقي... إنها تنظر.. إلى دار (رضا)..

فين الولد يا ولاد؟ قالوا الولد مسحور

أما ما جعلني أدرك أن الأمر كله ليس وهمًا فهو هالة الضوء الأخضر العجيبة المحيطة بها.. كأنها تشع هذا الضوء من الداخل.. من تحت ثوبها... إن ما أراه الآن لهو شيء غامض بكل المقاييس.. شيء لا أدري كنهه لكني لا أجرؤ على ترك المكان قبل فهم ما يحدث.

سافر وراها بلاد وادي السنين بتدور

والآن توقفت الفتاة وقامتها منتصبة وصدرها يعلو ويهبط.. ثم رفعت عقيرتها بالنداء وهي تنظر لأعلى كذئب يعوي أمام قرص القمر..

- (رضا اااه).. (رضا اااه)!

إنه نفس الصوت الطويل - كالنحيب - المدوّي كأنه قادم من أعماق الجحيم... نفس المقاطع الممطوطة.. نفس الحشرجة التي سمعتها في تلك الليلة عندما عدت من القاهرة...

- (رضا اااه).. (رضا اااه)!

والآن حان وقت انتهاء هذه المهزلة..، نهضت من مكاني وفي هدوء وحذر اتجهت إليها وكانت تدير ظهرها الي.. ضوءها الأخضر الغامض يغلف معالم

جسدها ويسقط على ثيابي... حين صرت خلفها تمامًا تنحنحت لأبدأ الكلام.. فقد انحشرت الحروف في حلقي..

فين الولد يا مّه؟ قالت نسي أهله

قلت وأنا أرتجف:
- ماذا تفعلين هنا أيتها الفتـ.....
وهنا التفتت لي..

فات البلد لمّا الغولة نادت له

من ذا الذي قال إن النداهة رائعة الجمال؟!.. أنا لم أر ولم أتخيل قط وجهًا مريعًا كهذا الوجه..، وجه شاحب كالموت.. عينان عميقتان حدقتاهما

حمراوان بلون الدم... شفتان مشققتان.. لا أنكر أن هناك جمالًا ما من نوع خاص كجمال الساحرات الشريرات كان موجودًا لكنه جمال قاس شنيع.. خصلات شعرها سوداء قاحة مصففة بعناية، وعنقها طويل شامخ و.... شامة كبيرة زرقاء على الخد الأيسر..

لم يتسع الوقت لأعصابي كي تستوعب كل شيء..، لأني صرخت وصرخت كما لم أصرخ من قبل.. نسيت كل شيء عن المسدس الذي في جيبي.. لم أكن أريد سوى الخروج من هذا الموقف إلى مكان لا أرى فيه هذا الوجه..

فين الولد يا ولاد؟ قالوا الولد مسحور

وشرعت أجري وأتعثر.. وأنهض.. ثم أجرى.. أعواد الذرة تلطم وجهي، وقلبي يخفق..، وتفكيري كله قد تبدد إلا من الأغنية المشئومة وثعبانين يلتهم كل منهما ذيل الآخر لا أدري كيف تسربا إلى عقلي الباطن..

ومن بعيد عاد صوتها يتردد في إصرار:

- (رضا اااه).. (رضا اااه)!

❋ ❋ ❋



وشرعت أجرى وأتعثر .. وأنهض .. ثم أجرى .. أعواد الذرة تلطم وجهى ..

وفي الظلام اصطدمت بجسد بشري، فأجفلت وشرعت أوجه لكمات خرقاء إلى ما ظننت أنه مقتله.. فسمعت صوتًا مألوفًا يبسمل ويهتف بي:

- دكتور (رفعت)!.. هذا أنا.. (عاصم)!

عاصم من؟!.. الآن تذكرت.. دكتور (عاصم) الذي بدأت معه المغامرة.. أنار الكشاف وشرع يهدئ من روعي على حين أخذت أرتجف وأحكي له ما حدث في كلمات سريعة.

- إذن هي هناك؟

- بالطبع يا أحمق..

- إذن هيا بنا هذه آخر فرصة لنا..

وشرعنا نجري إلى المكان الذي رأيتها فيه... وهناك - وعلى ضوء بطاريتينا - لم

يكن شيء سوى السكون المريع وصوت ضفدع ينق مغازلًا أنثاه...
أين ذهبت تلك الفتاة؟!..
- هل أنت واثق مما رأيت؟!
- بالطبع.
- ولماذا لم تقبض عليها؟!
احمر وجهي - وهو ما لم يره في الظلام
- وقلت بمزيج من الخجل والحنق:
- ليتك كنت هناك مكاني.. لم تكن هناك فرصة لأي شيء
- إلى هذا الحد كان المشهد مرعبًا..؟
- مريعًا..
- وأين تظنها ذهبت؟!
- إلى المكان الذي منه جاءت بالطبع..
تفكر حينًا ثم تثاءب، وقال:

- على كل حال فإن من رابع المستحيلات أن تجد أحدًا بين عيدان الذرة النامية، يبدو أن حفل الليلة قد انتهى... فلنعد إلى الوحدة ونتناقش..

أنت في حاجة لكوب من الشاي..

- نعم ولا ريب..

* * *

- والآن دعنا نسترجع ما حدث..

كانت (عواطف) زوجته تعد لنا الشاي على موقد الكيروسين، في حين جلسنا نرتجف - أنا ود (عاصم) - على الفراش.. لم أصدق لحظة أنني منذ عشر دقائق واجهت النداهة.. النداهة بعينها..

شرعت أعيد حكاية القصة، في حين شرعت (عواطف) تتصعب وتمصمص شفتيها حتى إذا وصلت لجزء المواجهة صرخت بصوتها المبحوح:

- يا لهوي!.. كفاك هذا فقد اقشعر جلدي!

ضحك د. (عاصم) في طرب.. ان الرجال يحبون أن تفزع النساء.. والنساء الذكيات فقط يعرفن كيف يستغللن هذا.. كأني بخوف النساء العتيد من الفئران مجرد تملق لغرور الرجل..

قلت في تواضع وأنا أرشف كوب الشاي:

- أنت اقشعررت من مجرد كلمات..، أما أنا فقد عشت الموقف وجها لوجه وسيظل يطاردني حتى أموت..

قال د. (عاصم) في اهتمام:

- صفها لي..
هرشت ذقني في تردد، إنني أعرف شكلها تمامًا لكني لا أستطيع وصفه.. ثم خطرت لي فكرة فتناولت ورقة وقلمًا وشرعت أخط شيئا ما..
- آه!.. سترسمها؟
- بالطبع.. فأنا رسام لا بأس به..
وعلى الورق بدأ الوجه يولد.. العينان الشاخصتان.. الشفتان الممزقتان خصلات الشعر الناعم الأسود منسدلة على الجبين، ثم العنق الطويل الأبيض..، صورة لابأس بها، لكنها لا تشبهها كثيرًا.. فقط مفيدة لمن لم ير نداهة من قبل..
مددت يدي بالورقة إلى (عاصم)، فتناولها يتأملها ومطت (عواطف) عنقها

الطويل في فضول لترى ما هنالك، أطال (عاصم) النظر إلى الصورة ثم أعادها لي واجمًا..، أعدت تأمل الصورة.. هناك خطأ ما ارتكبته.. فقد نسيت أن أظلل العينين لتكونا حمراوين كعيني النداهة، ثم إنني لم أرسم الشامة الزرقاء على الخد الأيسر.. لهذا بدت الصورة أكثر بشرية مما كانت عليه تلك الشيطانة حين رأيتها.. مجرد فتاة جميلة أخرى..

ثنيت الورقة ووضعتها في حافظتي ؛ ونهضت للانصراف.. فلم يحاول أحدهما استبقائي..، قال (عاصم) في شرود:

- وبعد.. هل سنواصل ما بدأناه باكرًا؟

- طبعًا.. إننا لم نصل لشيء..، والساعة الآن الحادية عشرة مساءً..

- لو كنت مكانك لأخذت الحذر..
- ولم؟
نظر لي نظرة حنونًا غريبة من خلف نظارته السميكة. .وهمس:
- لقد عطلت مشروعها لهذه الليلة، والنداهة لا تترك أبدًا من يعترض سبيلها! والآن فلتشرب كوبًا آخر من الشاي قبل أن تنصرف.!.

* * *

٨ - النداء

في الواحدة صباحًا عدت لداري فخلعت ثيابي وارتميت على فراشي منهكًا.. ما أطوله من يوم!!.. كان الصداع يقتلني والدوار يعصف بي.. وثمة انفصال كامل عن الوجود في كل كياني... ولكن.. الواحدة صباحًا..؟!.. لقد ودعت د. (عاصم) منذ ساعتين.. فهل استغرقت ساعتين في الوصول لداري؟!.. لا أذكر شيئًا ولا يهمني أن أذكر. كل ما أريده الآن هو أن أناااام..!.

ولم أدر متى غلبني النعاس..

وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي استيقظت وفمي جاف كالقش وفي ذهني صورة واحدة ملحة.. ثعبانان يلتهم كل منهما ذيل الآخر.. أين لمحتها؟

ومتى؟.. وما معناها..؟!..
ولم يستمر تساؤلي لأني غفوت ثانية..
-..............................

❋ ❋ ❋

على الطبلية جلست ألتهم البيض والفطير الذي أعدته لي أختي (رئيفة).. وكنت شارد الذهن إلى درجة أثارت قلقها.. شرعت تحدثني في مواضيع عديدة بدت لي بعيدة جدًا ومبتذلة فأغلقت أذني وشرعت أهمهم بنغمات مختلفة توحي بالمتابعة.. كأني أوافقها في الرأي:

-.........
- هم م م..!
-.........

- ههم م!
-.........؟!
- هم م..
وهنا لمحتها تنظر لي في ضيق ودهشة وتقول:
- إنني أسألك!
لقد أجبتها على سؤالها بهمهمة توحي بأنني أتابعها.. وهكذا اتضح شرودي بشكل مخجل لابد أنه أثار حفيظتها.. قلت في ارتباك:
- لا مؤاخذة... ماذا كنت تقولين؟!
- أنت لا تسمعني البتة.. أقول لك ماذا ستفعل مع (رضا)؟!
- وهل هناك جديد؟!

- نعم.. أرسلت لنا امرأته صباح اليوم تقول إنه..

- هرب؟!

- لا.. ليس بعد... نادته النداهة أمس فمزق قيوده وكاد يهرب، حتى أنها اضطرت للاستعانة بالجيران كي يمنعوه.. لم تكن تريد أن يعرفوا..

لم تكن تريد أن يعرفوا؟.. هذا غريب..

- وهل هي لم تخبر أحدًا بالموضوع حتى الآن؟

- بالطبع.. أنت تعرف امرأة أخيك.. إنها لا تحب الشماتة.. إنها تخفي السر وتزعم للجيران وأصدقائه أنه مريض..

- إذن أنا أول من فحصه؟!

- طبعًا.. وكنت أقول إن..

إن شيئًا في هذا الكلام لشديد الأهمية... إنه يعني. .ولكن يا لتشوش ذهني!

لا أستطيع أن استخلص شيئًا من هذا الكلام لكنه يوحي لي بفكرة ما هامة جدًا.. وقد نسيت ما هي...

شفتا أختي لم تزالا تتحركان بكلمات كثيرة... ألن تكفى عن الكلام أبدًا؟!.. أنا لا أفهم حرفًا مما تقولين فضلًا عن سماعه أصلًا... والآن من المحتم أن أزور (رضا) لأطمئن عليه وتلك المرأة الكتوم قوية الشخصية زوجته..

أنهيت إفطاري وشربت الشاي، ثم إنني غادرت الدار متجهًا إلى بيت (رضا) تعمدت أن أعبر حقل الذرة الذي حدثت فيه أحداث الأمس... وفي المكان الذي وقفت

فيه النداهة توقفت وشرعت أتفحص التراب.. كانت هناك آثار أقدام لحذائي الكاوتشوك الذي ارتديته ليلًا.. وعلى بعد أمتار كانت هناك آثار أخرى غريبة.. حفر دقيقة عميقة في التراب لا يمكن أن يرسمها حذاء.. بل هي - إذا أردنا الدقة - أقرب للآثار التي ترسمها أقدام القط حين يزحف في حذر نحو عصفور!..

اتجهت نحو دار (رضا) وقرعت الباب ففتحت لي (نجاة):

- أنت لم تدر ما حدث أمس وأنت نائم في العسل..

هكذا صرخت بمجرد أن رأتني فأوقفتها بحزم رافعًا يدي:

- أعرفه.. ولم أكن نائمًا في العسل..، سامحك الله..
- إذن أين كنت؟!
- كنت واقفًا في البرد والعراء أنتظر نداهتك. .ورأيتها.. وسمعتها تناديه.
- وماذا فعلت؟
- لا شيء.. ذهبت أطلب نجدة وحين عدت لم أجدها..
- يا خيبتك!!
إن هذه المرأة ستحطم أعصابي.. لماذا أتحمل وقاحتها وسخفها دون أن أحطم رأسها؟!
للأسف أنني مضطر لهذا لأنها هي الضريبة التي أدفعها وسأظل أدفعها كلما

أردت العبور إلى عالم أخي.. إنها سيدة الدار.. ولا مفر من ذلك!
تأملت وجهها.. خصلات شعرها الأسود الناعم.. عينيها المحملقتين.. إن هذه الملامح تذكرني بشيء ما... ثم إن شفتيها مشققتان بصورة غير عادية، وكانت تكشف عن عنق طويل أبيض..، لا أريد أن أكون متحاملًا لكن هذه المرأة تشبه النداهة إلى حد لا بأس به..!.. ثم لا تنس - وهذا هو الأهم - تلك الشامة الزرقاء الغريبة على خدها الأيسر... إنها تشبه النداهة لكنها ليست هي.. لا يمكن أن تكون هي.!.
- فيم أنت شارد هكذا؟!

ابتلعت ريقي.. قد تكون مصادفة وقد يكون إيحاء تركته في نفسي أحداث البارحة، وقد يكون انعكاسًا لكراهيتي لها لكني لا أتخيل للحظة المبرر ولا الحافز الذي يجعلها تترك زوجها وتخرج ليلًا لتنادي عليه من خارج البيت..! سيكون تكرارًا سخيفًا أن تكون كل فتاة أقابلها ذات شخصية شريرة أخرى.. (إيكاترينا) تتنكر في صورة مذءوب في رومانيا و(نجاة) تتنكر في صورة نداهة في مصر..!.

كلا.. لن تؤثر هذه الملاحظة العابرة على تفكيري.. فقط لأحتفظ في ذاكرتي بهذه النقطة ولا أنساها أبدًا: (نجاة) تشبه النداهة إلى حد ما..، لربما أفادتني هذه المعلومة يومًا ما..، ودعتها وانصرفت متجهًا

لداري.. على أنني توجهت إلى الوحدة الصحية لأري شيئًا ما في مكتب المواليد ثم عدت لداري بعدها دون أن أقابل (عاصم)..

* * *

بدأ المرضى يتوافدون إلى دارنا.. فعدت أمارس عملي في الغرفة الجانبية إياها، وكنت شارد الذهن مما أثر على سلامة تشخيصي، ولأكثر من مرة تردد القلم في يدي محاولًا تذكر اسم دواء ما.. ونسيت كثيرًا من الوجوه التي رأيتها أمس.. الخلاصة أن أدائي كان مثيرًا للشفقة إلى حد لا يوصف.

وحين جاء العصر صعدت لغرفتي وتناولت لقمة أعدتها لي أمي للغداء.. ثم تمددت في فراشي لأستريح استعدادًا للسهرة القاسية التي تنتظرني هذه الليلة.. وسرعان ما غلبني النعاس، فنمت نومًا هادئًا لا أحلام فيه...

* * *

صحوت في الظلام الدامس.. ما الوقت الآن؟!.. نظرت لساعتي الفوسفورية فوجدت عقاربها تشير للعاشرة مساء.. لقد خانني التعب وتأخرت ساعتين عن موعدي في الوحدة مع د. (عاصم).. يجب أن أرتدي ثيابي وأهرع إليه قبل أن يجن..

ارتديت (عدّة النداهة) التي وصفتها لك.. المسدس والمصحف والسجائر والحذاء الخفيف.. ثم اتجهت للباب كي أخرج، وهنا سمعت صوتًا غريبًا.. صوتًا قادمًا من ناحية الساقية المجاورة لبيتنا.. صوتًا طويلًا ممطوطًا كالنحيب.. صوتًا أعرفه جيدًا يقول:

- (رفعا ااات).. (رفعا ااات)!

إنها تناديني أنا.. أنا بالذات!.. لقد جاءت لحظتي، والآن لن أبحث عنها ولن يكون هناك المزيد من الانتظار الليلي الممل... كل ما علي هو أن أخرج من البيت ولسوف تكون هناك بانتظاري..

- (رفعا ااات)!

وهنا انفتح الباب ولمحت أمي وأختي و(طلعت) زوج (رئيفة) يدخلون الحجرة وثمة شمعة مضاءة في يد أمي.. ونظرة هلع في عينيها الذابلتين:

- بسم الله الرحمن الرحيم!.. إنها تناديك يا بني؟!..

ثم لمحت استعدادي للخروج..، فصاحت:

- لا.. لن تذهب!..

قلت في غلظة على الرغم مني:

- اسمعي يا أمي.. لا دخل لأحد بهذا.. إنها مشكلتي وسأحلها بنفسي..

ضربت على صدرها في لوعة:

- الحقوني أيها الناس.. هل أفقد الولد وأخاه؟!

بينما الصوت يتردد في إصرار وبرود::

- (رفعا اااات)!
اتجهت للباب.. إن شيئًا ما في هذا النداء لا يقاوم أبدًا.. ثم مشهد وجهها.. لابد لي أن أرى هذا الوجه مرة أخرى..، كم هو فاتن... كم هو غريب.. كم هو شيق... لن يستطيع هؤلاء منعي بدعوى الحنان الأسري..
أمسك (طلعت) ذراعي بيده القوية - كالمنجلة - وقال بخشونة:
- (رفعت).. لا أريد أن أؤذيك..!
قلت في حنق محاولًا انتزاع ذراعي وقد سقطت نظارتي على الأرض:
- لا شأن لك يا (طلعت) بهذا.. دعني.
فازدادت قبضته ثباتًا... وهنا دوي الصوت مرة أخرى:

- (رفعا ااات)!

كلا.... لن أضيع هذه الفرصة!.. حاولت التملص في هياج فكانت فرصة رائعة لـ (طلعت) كي يستعرض قواه.. لا أذكر سوى معركة عنيفة كنت فيها الطرف الواهي جدًا..

وكانت أمي تولول، وأختي تلطم خديها بينما طفلها يمسك ذيل ثوبها وينشج... (طلعت) يوجه لي اللكمات ثم يلقي بي على الفراش الخشبي العتيق.. أختي تناوله حبلًا من الليف يعقده حول كاحلي وهو يلهث.. ثم يلفه حول معصمي، قاومت.. صرخت.. تسلخ لحمي لكن القيد كان



أمسك (طلعت) ذراعى بيده القوية ــ كالمنجلة ــ وقال بخشونة :
ــ (رفعت) .. لا أريد أن أؤذيك !..

محكمًا.. ثم استسلمت منهكًا.. الصوت لم ينفك ينادي:

- (رفعا ااات)!

أطلقت أختي سبة.. وهتفت:

- ألن تخرسي يا بنت ال......؟!

ثم شرعت تقول وهي تبكي وقد اكتسب كلامها نغمة محببة للنفس:

- أولًا (رضا).. ثم هو ذا أخي (رفعت) زينة الرجال. ليتك لم تأت من مصر.

ليتك لم تأت، ليتك تركتنا في بؤسنا..

لماذا تبكي هذه المرأة؟!.. أنا لا أرى مصيبة ما في هذا الذي يحدث.. كل ما هناك أن هذا القيد يثير حفيظتي وأنني يجب أن أتخلص منه بأسرع ما يمكن..

هناك تقف حبيبتي الرقيقة في ثوبها الأسود تنتظرني وتناديني.. فعلام لا ألبي نداءها؟!

* * *

لم أدر بشيء مما حدث في الأيام التالية.. هلوسة متواصلة مضطربة تداخل فيها د. (ريتشارد) مع (استبان) والمذءوب مع مومياء (دراكيولا) ومشهد وفاة (إيكاترينا) ود. (عاصم) ووجه النداهة ووجه يهوذا والثعبانين اللذين يلتهم كل منهما ذيل الآخر..

فيما بعد حكت لي (رئيفة) كل شيء..

كنت ذاهلًا عن العالم أرمقه بعينين مفتوحتين لا تريان، ولم أكن آكل لهذا كانوا يطعمونني قسرًا كالبط..، وقد

أحرقت أمي أطنانًا من البخور جوار فراشي وقرأت سورة (يس) مئات المرات..
أما (رئيفة) فقد أحضرت - مشعوذًا نصابًا كالعادة - كي يحاول فك اللعنة التي تكبلني.. وبالطبع أحرق مزيدًا من البخور وردد عشرات الرقي وطلبت مئات الطلبات ثم انصرف زاعمًا أن هناك جنيًا حانقًا علي لأني لم أجلب له ما أراد من هدايا..
وكان (طلعت) أكثر مادية في تفكيره.. إذ ذهب للقرية وأحضر د. (عاصم) طبيب الوحدة كي يراني.. وقد أبدى هذا الأخير أسفه ولوعته، وقال إنه خمن أن هذا حدث حين تأخرت عن موعدي معه، وحكى لهم

قصة لقائي مع النداهة.. ثم إنه أعطاني حقنة مهدئة وعرض خدماته في أي وقت ونصحهم بفك القيود من حين لآخر والسماح لي بالتقلب في الفراش حتى لا أصاب بقرحة فراش،.، وأخذ جنيهًا ثمن الكشف برغم أن هذا ممنوع حسب قوانين النقابة..

ياله من نصاب ا..

وفي كل ليلة - حكت أختي - كانت البداية تناديني من جوار الساقية... فكنت أتململ وأتقلب وأحاول النهوض لكن القيود كانت أقوى مني..

وفي ذات مرة أصر (طلعت) على الخروج ليرى هذه الشيطانة لكن أمي وأختي توسلتا إليه أن يبقى.. فهما ليستا

على استعداد لفقد آخر رجل في الأسرة.. وقد اضطرت أختي لأن تلثم يده كي يكبح فضوله القاتل، فرضخ لرغبتها..

كم من الوقت استمر بي هذا الحال؟!..

أسبوعين..!.

وكيف انتهى؟!.. إن لذلك قصة صغيرة سأحكيها لكم، ولكن لا تتعجلوني..

❋ ❋ ❋

وصل خطاب باسمي، تسلمه (طلعت) زوج أختي.. ولم ير فائدة ما من اطلاعي عليه لأنني قد انفصلت عن العالم تمامًا.. لهذا نسيه تمامًا في جيب جلبابه.. ثم إنه في إحدى الليالي فكر في أن يتلوه بجانب

فراشي لعل شيئًا فيه يثير انتباهي أو يكون أمرًا ذا بال يمكنه هو التصرف فيه..
وعلى ضوء مصباح الجاز شرع يقرأ..
كان الخطاب من تلميذي د. (علاء عبد الصمد) يتحدث فيه عن عينة الدم التي أخذها ليحللها في معمله بالقاهرة:
- عزيزي د. (رفعت):
لم أستطيع الحضور بنفسي كما أنني لم أستطع الاتصال تليفونيًا لأن القرية لا يوجد بها تليفون، لهذا أرسل هذا الخطاب وفي تقديري أنه لا يستغرق سوى ثلاثة أيام وبالتالي لن يسبب التأخير مشكلة..
لقد قمت بإجراء التحاليل التي طلبتها..
وكما توقعت أنت لم أجد أي دليل على مرض السكر أو الكلى أو الفشل الكبد أو

تغير حموضة الدم... كما أن نسب الكهارل8 لابأس بها..، ومزارع الباكتيريا سلبية كلها..

باختصار.. لا شيء على الإطلاق.

ثم قمت بإجراء تحليل كروماتوجرافي في كلية الصيدلة بحثًا عن سموم معينة وبعد بحث مدقق مرهق وجدنا في العينة نسبة قليلة جدًا ولكنها محسوسة من مادة الباربيتورات..

كان (طلعت) يقرأ بلغته المضعضعة الواهية، وقد عانى الأمرين في نطق كلمات مثل (كهارل).. (كروماتوجرافي)... (باربيتورات) لكن الكلمة الأخيرة وصلتني كاملة سليمة.. واستقرت في وعيي لتحدث هزة كاسحة..

ومن ثم رددتها خلفه - هكذا قال - وكانت أول كلمة أقولها منذ أسبوعين مما أحدث له هزة فرح عارمة.. وشرع يكبر والدموع تغطي عينيه:

- وا (رفعت)!.. لقد نطقت أيها الرجل الطيب!.. نطقت!

هأنذا.. حي أرزق.. لا أدري ما حدث لي ولا يعنيني أن أعرف.. فقط أريد هذا الخطاب حالًا.. يجب أن أعرف ما به... ولكن.. إنني مقيد للفراش كالذبيحة.. من فعل هذا؟.. (طلعت)؟!.. ولماذا؟!.. أذكر شيئًا عن النداهة وعن تلك الليلة لكنه مشوش تمامًا.. لابد أنهم قيدوني - هؤلاء الحمقى - لكيلا ألحق بالآخرين.. قلت في صوت متحشرج:

- (طلعت).. أنا بخير.. أرجوك أن تفك قيودي..
نظر لي في حيرة ولم يرد..
- (طلعت)!.. دعني أنهض وسأخبرك بكل شيء.. لقد زالت الغيبوبة.!.
وجهه مغطى بالظلال ولا يريد أن يرد، من حقه ألا يصدق لكن كيف أقنعه؟
- (طلعت)!.. صدقني.. أنا لا أكذب..
نهض في حزم ووضع الخطاب في جيبه.. وقال لي بجلاء واضح
- استعذ بالله يا دكتور ولا تلبي نداء الشيطان.
- ولكن..
- إنها تلك الملعونة تحاول أن تدعوك إليها.. لكنك لن تخدعني.!.

وحمل مصباح الكيروسين في يده متجهًا للباب، وفتحه.. وقبل أن يخرج قال مكررًا في اشمئزاز كأنه يبصق..
- لن تخدعني!

* * *

٩ - أخيرًا فهمت!

في ظلال الليل ومع قيدي الإجباري بدأ تفكيري ينشط ويصفو حتى وصل ذروته.. وبدأت أحلل الحقائق وأفندها.. كل كلمة

وكل صورة وكل موقف كان له دور ما في هذه القصة..

بدأت الصورة النهائية تكتمل لكن ثغرات عدة كانت تملؤها.. المهم الآن أن يطلقوا سراحي ولو قليلًا لأني بحاجة إلى الحركة..

❋ ❋ ❋

في الصباح جاءت (رئيفة) بالافطار ؛ وجلست جواري على السرير وشرعت تدس لقيمات مغموسة بالعسل في فمي.. اللعنة... أنا لا أحب العسل إن كل ما مررت به من تجارب مروعة لا يساوي عندي أن آكل العسل وأنا مقيد بالحبال!

لهذا بصقت ما في فمي مما جعلها تجفل.. وصحت:

- (رئيفة).. أنا بخير.. لقد شفيت..

- يارب!

- لقد استجاب الله بالفعل لدعائك.. ألم تلاحظي أنني أتكلم؟

- لقد أخبرني (طلعت).. وأخبرني أيضًا أن هذه خدعة من النداهة..!.

يا للغباء!.. من حسن حظها بالفعل أنني مقيد.. قلت في غيظ:

- ومتى ستقولين أنني شفيت إذن؟!

- حين.. حين تشفى!

ماذا أفعل مع هذه الحمقاء العزيزة؟!.. إن ذهولي هو دليل مرضي - كما تعتقد - إلا أن عودتي للواقع هي دليل أكثر خطورة

على نفس المرض... أخذت نفسًا عميقة وقررت أن أسايسها برفق:

- (رئيفة)..

- نعم..

- إن النداهة تنادي ليلًا.. أليس كذلك..؟

- بلى..

- ونحن الآن في الصباح.. أي أن رغبتي في التحرر لا غبار عليها..

- طبعًا..

- إذن لماذا لا تحضرين سكين المطبخ وتقطعين قيودي؟!

قالت وهي تلملم شتات الفطير المتساقط على صدري وذقني..

- إن (طلعت) قد حلف علي بالطلاق لو أنني فككت قيودك، هو لا يريد سوى

مصلحتك

اللعنة!.. ها هي ذي الأمور تأخذ طابعًا متأزمًا لامفر منه.. لو حررتني فقد فقدت زوجها وأسرتها.. قلت في حنق:

- إذن سأقضي حياتي هكذا؟.. حتى إذا شفيت من نداء النداهة؟

نظرت لي في حسرة وهمست:

- أن أحدًا لم يشف من نداء النداهة أبدًا.. ولهذا نحن واثقون أنك لم تشف.. هذا هو كل شيء!

آه.. يا للمنطق المحكم الخرب..! أمامي الآن حلان.. إما أن أقضي نهاري في محاولات خرقاء لفك القيود آسفًا على أنني لم أكن هوديني9 وإما أن أخبرها بكل استنتاجاتي آملًا أن تتولى هي مهمة كشف

السر.. لكنها لن تفهم حرفًا مما سأقوله لها ولن تصدقه..

في هذه اللحظة دخلت أمي الحجرة هاتفة في مرح:

- صباح الخير يا بني..، لقد جاء حبيبك..

- حبيبي؟!

- نعم.. د. (عاصم) وزوجته للاطمئنان عليك.. قل له كل ما تريد..

- أقول له ما أريد؟!.. إن الإغراء شديد بالفعل..

***

دخل د. (عاصم) بصلعته المميزة الغرفة حاملًا حقيبة الفحص ووراءه زوجته (عواطف) وقد بدت في أجمل حالاتها في

ضوء النهار.. وما إن رآني حتى اتسع ثغره بابتسامة بلهاء وصاح:
- الحمد لله على سلامتك أيها الزميل!.. أخبرتني (الحاجة) أنك قد تكلمت بالأمس..
كانت نظراتي مثبتة على (عواطف).. على قلادتها بالذات، وقد لاحظت نظرتي فأغلقت زر قميصها العلوي في شيء من الحرج، وغفت:
- حمدا لله على السلامة!
التفت د. (عاصم) إلى أمي وقال في مرح:
- نريد الشاي يا ست الكل.. ثم التفت إلي، وجلس على حافة الفراش قائلًا:
- لقد تركت الوحدة في ساعة الذروة من أجلك..

- بارك الله فيك.. اجلسي يا مدام (عواطف)..

جرت (عواطف) كرسيًا من الجريد وجلست عليه جوار الفراش وهي تتحاشى النظر لوجهي في إصرار.. غريب هذا الاجتماع العائلي بين طبيب سعيد مثله وزوجته مع رجل مقيد في الفراش وقد نمت ذقنه المشعثة فبدا كالمجانين..، دعك من أنني لم أكن قد استحممت منذ أسبوعين مما جعل رائحتي ككهوف الدببة.

أحضرت أمي الشاي فنهضت (عواطف) لتأخذ منها الصينية، ووضعتها على الأرض الترابية جوار الفراش، في حين قال د. (عاصم):

- والآن هلا تركتنا بعض الوقت يا حاجة؟!.. أغلقي الباب خلفك لأننا سنناقش



وقد لاحظت نظرتى فأغلقت زر قميصها العلوى فى شىء من الحرج ، وغمغمت : ــ حمدًا لله على السلامة ..

مستقبل ابنك ولماذا لم يتزوج؟
ضحكت أمي في مرح ودعت له ولزوجته ثم فعلت كما قال..
- والان هات ما عندك..
- ومن قال لك إن هناك ما عندي؟!
- عيناك..
- ليس قبل أن تفك قيدي..
- أما هذا فلا.. لقد وعدت هاتين البائستين.. ولحسن الحظ أنهم لم يربطوا لسانك بحبل من الليف هو الآخر..
أخذت نفسًا عميقًا ونظرت لسقف الحجرة ثم قلت:
- حسن.. سأتحدث.. ولكن لا تقاطعني،،، ضع نظارتي على أنفي على الأقل..
- لك هذا..

- في البدء كان اللغز غامضًا كالموت نفسه.. ولم يكن هناك بصيص من هدى، لهذا أرسلت عينةً من دم مريض لتحليلها في القاهرة بحثًا عن شيء ما..، وأمس وصلني التقرير.. يقول ان هناك نسبة ما لا تذكر من مادة الباربيتيورات..

- وماذا في ذلك؟.. ألم تعطه أنت حقنة فينوباربيتون!

- كلا.. لقد أعطيت هذا المريض حقنة فينوباربيتون بعد وليس قبل التحليل..

أي أنه كان يتعاطى - أو يُعطى - هذا العقار في أثناء مرضه..

والآن هل تعلم من هو هذا المريض؟!.. إنه (رضا إسماعيل) أخي..

- وهل.. هل أخفيت علي ذلك كل هذه الفترة؟!

- أنا نفسي لم أر مبررًا لذلك، لكني - حين أعيد التفكير - أرى أنه أحكم تصرف فعلته في حياتي.. والآن دعنا نسترجع الأحداث.. في كراستك الصغيرة التي أريتني إياها في الوحدة حين زرتك أول مرة ذكرت اسم (رضا إسماعيل) وأنه ممن نادتهم النداهة.. كيف أمكنك معرفة ذلك في حين أن زوجة أخي لم تخبر أحدًا في القرية بهذا الموضوع ولم تجلب له طبيبًا غيري..؟!

إنك قيدت اسمه في الكراسة دون أن يخبرك به أحد..

فما السبب؟!!

قال في ارتباك:
- ربما هي كلمة سمعتها هنا أو هناك.. لابد أن الخبر تسرب..
قلت في حزم:
- ألم أقل لك ألا تقاطعني.. ثم إنني قابلت النداهة المزعومة..، وكان الموقف مريعًا لكني احتفظت في ذهني بملامحها.. واستطعت أن أرسمها لكني نسيت بعض التفاصيل التي كانت تجعلها متوحشة، مما جعلها أقرب لصورة أنثى عادية.. حين رأيت أنت و(عواطف) هذه الصورة أصابكما الوجوم.. لماذا؟!.. لأن الصورة بدت أقرب إلى (عواطف) منها للنداهة... لكني لم أفطن لهذا الشبه وقتها وخيل لي أن هناك تشابهًا شديدًا مع (نجاة) زوجة

أخي.. إن النداهة التي رأيتها تملك شامة زرقاء على خدها وهذه يسهل رسمها.. أما العينان الحمراوان فيمكن لعدستين ملتصقتين ملونتين إعطاء الإيحاء بهما.. أما اللون الفسفوري المشع ليلًا فهو شديد السهولة، أن الماكياج الذي كان على وجه النداهة كان متقنًا وكان بارعًا لكن نسيان الشامة يفسد كل شيء..

أضف إلى هذا أن الأنثى هي الأنثى.. لم تنس (عواطف) أن تضع قلادتها الذهبية الجميلة - التي ترتديها الآن - على عنقها وهي تمثل دور النداهة، لم يتسع عقلي لاستيعاب شكل القلادة لهذا ظلت مجرد صورة في ذاكرتي الثعبانين يلتهم كل منهما ذيل الآخر لا أنكر متى وأين

رأيتها... ومن عادات (عواطف) أن تضع يدها على جيدها في أثناء الكلام لهذا لم ألحظ أنها ترتدي هذه القلادة إلا الآن..!.

والنقطة الأخيرة هي صوت (عواطف) المبحوح.. إن سر هذه البحة هو كل هذا المجهود الذي تبذله حنجرتها في النداء على الفلاحين ليلًا..، هذا الصوت الرهيب غير البشري لابد وأنه أتلف أحبالها الصوتية..

ويوم زرتك في الوحدة أول مرة لم ألق زوجتك.. قلت إنها كانت في ولادة بالقرية لكن هذا غير صحيح.. لقد تفقدت سجل مواليد القرية يومها فلم يكن هناك أي مولود، كانت - ببساطة - تنادي (رضا) أخي وقتها..!.

قال د. (عاصم) وقد ارتسم شبح ابتسامته على ثغره:

- وماذا عن الفلاحين الذين رأوها تمشي فوق الماء، أو لا تترك ظلًا؟!

- لقد كاد قلبي يتوقف رعبًا وأنا لا أومن بها.. فهل تتوقع من فلاح أو طفل يراها بهذا الماكياج المريع ألا يفقد صوابه؟!.. لا يمكن أن يكون كلامه متماسكًا.. إنه سيراها عندئذ كما يظن أنها ستكون وليس كما هي في الواقع.. وعلى كل حال لا أظنكما عاجزين عن تلفيق خدعة بصرية كهذه!

قال د. (عاصم) وهو يتبادل النظرات مع عواطف:

- ولكن الحالة أصابتك أنت نفسك بكل تفاصيلها المرعبة.. هل كنت أنت أيضًا تمثل معنا..؟!

تنهدت في يأس وقلت:

- أن هذه هي الثغرة في قصتي..، لكن تذكر أن المرض هاجمني بعدما كنت عندكم وبعدما شربت الشاي الذي قدمته لي زوجتك.. ماذا كان في الكوب..

والأهم هو أنني ودعتك في الحادية عشر مساء ووصلت داري في الواحدة صباحًا..

وليس لدي أدنى تفسير لما فعلته أو حدث لي في هاتين الساعتين..

إنني كنت ضحية معالجة ما لا أفهمها لكنها تؤدي لجنون ذهولي دائم.. وأنت وزوجتك هما من يملكان التفسير..

نظر لي د. (عاصم) في ثبات وقال:
- والآن - بفرض صحة كلامك - ماذا تريد؟
- النصف الآخر من الحقيقة وهو لماذا فعلتما ذلك؟
أشعل د. (عاصم) سيجارة.. ونظر نظرة ذات معنى إلى (عواطف) فنهضت للحقيبة وناولته شيئًا ما منها.. محقنًا زجاجيًا مليئًا بسائل أبيض.. وقال لي:
- هناك حقيقة واحدة يا زميل.. لقد كنت قوي الملاحظة لكنك ساذج.. ساذج بشكل مرعب... وأحمق أيضًا..
أخيرًا..! لقد اعترف - لأول مرة - بأن كلامي صحيح.. إلا أنه أردف:

- عندما يواجه المرء أعداءه بحقائق كهذه يجب عليه أن يكون في موقف قوة لا أن يقول كلامه وهو منعزل ومقيد في الفراش.. والآن أنت تحت رحمتنا تمامًا..!
كان يجب أن تنتظر حتى تتحرر.. والآن..
- حقنة هواء في عروقي؟!
- لا.. إنها طريقة فظة... أولًا سأعطيك جرعة من الباريتيورات لتنام ثم نفك قيودك جزئيًا بشكل لن يلاحظه أحد، وفي المساء سينام الجميع عندئذ ستلبي نداء النداهة.. وستحضر لنا إلى حيث تعرف مصير من سبقوك..!.
فتحت فمي لأصرخ إلا أن (عواطف) كومت الملاءة وحشرتها في فمي حشرًا حتى تكتم صوتي، في حين شرع (عاصم)

يعرّي ذراعي.. وفي تؤدة أفرغ الحقنة في وريدي.. ثم إنه نهض لاهثًا:

- عندما تعود أمك وأختك للغرفة ستعرفان أن مناقشتنا قد أنهكتك.. وأنك ستنام طيلة اليوم..

ثم أعاد محقنه للحقيبة.. وضحك:

- أراك هذا المساء أيها الزميل!

* * *

١٠ - المعمل..

استغرقت بعض الوقت كي أدرك أين أنا ومن أنا، وحين فتحت عيني لم يكن ما رأيته هو حجرتي الفقيرة الأليفة بل كانت غرفة واسعة تزحف الرطوبة والطحالب والعفن على جدرانها..

كنت مقيدا إلى الحائط بجنزيرين صدئين في وضع المصلوب..، وجواري كان جردل فارغ وغلاية حقن معدنية موضوعة فوق موقد جاز عتيق..، وكانت رائحة العقاقير تملأ الجو..، والأغرب هو أنني كنت أرتدي البيجامة وحافيًا..

ثم عرفت ذلك الشيء الذي يمنعني من الكلام.. شريط عريض من البلاستر ملصق فوق فمي، وكانت قدماي حرتين لكن لم يكن شيء في مجال حركتهما..

رفعت وجهي في هدوء لأرى ما هناك..،
كنت قد فقدت نظارتي لكني لم أكن قصير النظر إلى هذا الحد الذي يمنعني من تبين تلك الأجساد الآدمية نصف العارية المقيدة إلى الجدران من حولي..

كانت هناك أربعة أجساد لرجال في العقد الثاني أو الثالث من العمر وأحدهم أقرب لسن المراهقة، كلهم مقيدون - بنفس الكيفية التي أنا مقيد بها - للحائط.. وعلى فم اثنين منهما قطع بلاستر لاصقة، على أنه لم يكن هناك كثير حاجة لذلك لأنهم كانوا جميعًا في حالة ذهول تام..

ولكن.. من هو هذا الرجل ضخم الجثة الذي أغمض عينيه وتدلى رأسه على

صدره؟!.. إنه هو.... (رضا) أخي!.. هو بعينه..
الآن تذكرت قصة د. (عاصم)، والحقنة التي أخذتها.. والمواجهة... و(عواطف) و... يبدو أنه نفذ تهديده حرفيًا وهو يعرف ذلك الذي يفعله جيدًا.. والآن أنا أسيره، ويبدو أنه لا مفر لي من قبضته.. كل ما على هو أن أنتظر لأرى..
أما باقي الغرفة فكان يحوي منضدة عليها أنابيب اختبار عدة.. وموقد (بنزن) وميكروسكوب ضوئي متهالك.. وآلة طرد مركزي..
صوت باب ينفتح ببطء...
وعلى بصيص الضوء الخافت القادم من النافذة رأيته.. د. (عاصم) وقد ارتدي

معطفًا ملوثًا بالدماء ومن خلفه (عواطف) زوجته.. وكان يحمل صينية عليها قوارير عقاقير مختلفة الأنواع... وفي ثقة انتزع قطعة البلاستر من على فمي..

- صباح الخير أيها الزميل!

هتف بي وهو يضحك متشفيًا.. ووضع ما في يده على المنضدة..

- كيف حالك؟

- أفضل مما تتوقع أيها الجزار...

- يبدو أن نوم الليلة لم ينجح في تهذيب أخلاقك.. لقد فككنا قيودك بشكل لم يلاحظه أحد..، وحين جاء الليل نادت النداهة فنهضت من فراشك ووثبت من النافذة وجئت إلي متحمسًا.. أليس هذا رائعًا؟!

ثم إنه أمسك بمعصم زوجته وأشار لي:

- تخيلي هذا يا (عواطف).. أستاذ أمراض الدم العظيم هو حيوان تجارب في معملي... دعينا نعرفه على زملائه في الأسر..

ثم مضى إلى الحائط.. إلى الرجال المكبلين بالسلاسل، وشرع يشير لهم واحدًا واحدًا:

- هذا الفتى الوسيم هو (إبراهيم السقا).. شاب في الثالثة عشرة من عمره، قلبه مليء بالعواطف وذهنه مليء بالطموحات.. إلى أن جاءت النداهة..

وتحرك إلى رجل أصلع ضخم الجثة ينتظر لنا نظرة خاوية خرساء.

- وهذا الأخ هو (الزغبي فرحات).. أول ضحاياي.. وهو رب أسرة ورجل ورع

شديد الرزانة..
ثم تحرك إلى شاب كث الشارب تدلى رأسه على كتفه..
- وهذا (سعيد جابر).. عامل البناء الشاب الذي ضرب زوجته كي يلحق بالنداهة..، أما هذا..
وتوقف عند أخي..
- فهو (رضا إسماعيل)، شقيق الدكتور (رفعت).. لقد ضممته للمجموعة أمس فقط بعد أن أخذتك أنت الآخر.. والآن تصور مشاعر أمكما التي فقدت ولديها الراشدين في ليلة واحدة!!
ثم أشعل سيجارة، كان يعرف كم هو سمج ويستمتع بذلك، لقد وجد أقصى متع الحياة في أن يكون وغدًا..

- والآن نأتي لموضوعنا الذي أثرته أنت أمس.. ما هو هدفي من كل هذا؟.. دعني أخبرك بسر صغير يا د. (رفعت).. إنني عبقري!.. أنت لم تلحظ هذا بالطبع لأن العباقرة لا يمشون برأس متضخم كالذي نراه في قصص الخيال العلمي.. لكنى أؤكد لك أننى عبقري..

وما الذي نلته من ذلك؟!.. لا شيء.. سلسلة طويلة من الإحباطات.. لم أوفق إلى الالتحاق بسلك الجامعة ونفيت إلى هذه القرية القذرة التي لا تناسب أحلامي..

وحتى في الحب.. وارتجفت شفتاه قليلًا وهو يردف:

- حتى هنا لم أوفق..، كان رأسي الأصلع ونظارتي السميكة يعوقانني عن الحصول

على الفتيات اللواتي أرغب في أن يشاركن حياتي، كل شيء في الحياة كان يرغمني على أن أكون ما أرادوه لي.. مجرد فأر أرياف منزو منعزل وفقير.. وحين أموت لن يذكرني أحد، ولن يبكي على أحد..

ونفث دخان سيجارته في إنهاك.. وأردف:

- وهكذا.. قررت أن أنتقم... إنني أعرف أن أسطورة النداهة قديمة في هذا البلد ولهذا تزوجت (عواطف).. وبدأت في تحويلها إلى نداهة حقيقية.. أنت لا تتصور عبقريتي في الماكياج.. ولكن.. إنك رأيتها فعلًا وأصابك الذعر هل تتكر؟

- لم أنكر لحظة...

- كنت أختار ضحيتي من زوار الوحدة الصحية، وكنت أتفرد به فاحقنه بجرعة صغيرة جدًا من (بنتوثال الصوديوم).. إنهم يسمونه مصل الحقيقة لأنه يضعف الارادة... وهكذا أبدأ نوعًا خاصًا جدًا من التنويم المغناطيسي تحت تأثير هذا الدواء..، وأقنعه أنه يحب النداهة.. وأن عليه أن يلبي نداءها حين يسمعه في الليل.. وأن يظل صامتًا لا يأكل ولا يشرب في انتظار النداء..

وفي الليل ترتدي (عواطف) ثياب النداهة الفسفورية وتقف عند بيت الضحية وتبدأ في النداء باسمه..، أحيانًا كان يلبي وأحيانًا كان أهله يحكمون الحصار حوله.. لكنها - مهما طالت المدة - كانت واثقة أنها آمنة

وأن أحدًا لن يجرؤ أبدًا على الخروج لمضايقتها..، أضف لهذا أنني - أو عامل الوحدة - كنا دائمًا على مقربة منها على استعداد للتدخل إذا حدث شيء..

وكنت أزور الضحية صباحًا فأعطيه جرعة صغيرة منشطة من الباربيتيورات ليظل وعيه في حالة السبات، إنني الوحيد في القرية الذي له الحق في إعطاء حقن لا يعرف نوعيتها أحد للمرضى..

ثم تأتي الليلة الموعودة..

الليلة التي يلحق فيها المريض بالنداهة.. عندئذ أبادر أنا أو عامل الوحدة إلى تخديره ونقله إلى هنا.. أي إلى سكن الممرضات الخالي بالوحدة والذي لا

يصعد إليه أحد ولا يجرؤ أحد على تفتيشه..
- ولماذا لا تخطف من تريد مباشرة وتنتهي؟!
- الفن..!
قالها بلهجة من يقرر حقيقة لا غبار عليها..
- الفن يا صديقي.. الفن.. يجب أن تكتمل جوانب الأسطورة وتتسق مع بعضها.. ألم أقل لك إنني عبقري؟!..
- وما جدوي كل هذا؟.. وما فائدة جمع الفلاحين كالفراش؟!
ضحك في سرور.. وهتف:
- هذا هو بيت القصيد.. أن لهذا شطرين.. الشطر الأول هو استمتاعي

الخاص بإحياء قصة النداهة وإفزاع هؤلاء الناس، والشطر الثاني هو حاجتي إلى حيوانات تجارب بشرية لإجراء نوع خاص جدًا من الأبحاث.. أبحاث هي وليدة قراءاتي وعبقريتي، أبحاث ستؤدي إلى صنع الإنسان الأعظم.. السوبرمان..

قلت له في سخرية:

- لهذا وجدت في حجرتك كتب (نيتشه) وكفاحي لـ(هتلر) وكل هذه الروايات عن الخيال العلمي..، أنت تعتنق إذن هذه الأفكار النازية المخبولة..!.

اعتصر سيجارته بين أسنانه وغمغم:

- ليست أفكارًا مخبولة... إنها رؤيا خارقة لا يفهمها أمثالك.. أنت عالم حقًا ولديك شهادات علمية لا أعرف حتى كيف

أقرأ أسماءها لكنك مجرد صرصور آخر يحرك شواربه في جشع بحثًا عن المادة..
وبصق في اشمئزاز:
- صرصور..!
تجاهلت إهانته التي لا مبرر لها أبدًا، وسألته:
- لدي خمسة أسئلة أرجو أن تجيب عليها... أنا أعرف أنك متلهف على بدء تجاربك علي لكني لا أريد أن أموت أو أجن وأنا لم أفهم بعد..
- سل ما تريد..
- السؤال الأول هو: لماذا جعلتموني أرى النداهة في تلك الليلة
ماذا كان سيكون تصرفكم لو أنني هاجمتها؟!

قال وهو يهرش صلعته:
- كان هناك احتمالان.. الاحتمال الأول - وهو الأفضل - كان أن يصيبك الهلع وتفرّ وتزداد إيمانًا بوجود النداهة وهو ما حدث تقريبًا، أما الاحتمال الثاني فكان أنك قد تهاجمها، وعندئذ كنا سنثب عليك أنا و(صلاح) عامل الوحدة لنحقنك بينتوثال الصوديوم ثم تبدأ معك قصة النداء الغامض..

أنت نفذت الاحتمال الأول.. إلا أنك اقتربت جدًا من الحقيقة حين رسمت وجه النداهة - أو (عواطف) - بهذه الدقة لهذا آثرنا أن نبدأ معالجتك فورًا.. دست لك (عواطف) مخدرًا في الشاي.. ومارست أنا تنويمك مغناطيسيًا بمعونة بنتوثال

الصوديوم.. وحين عدت لدارك - بعد ساعتين - كنت قد صرت مسحورًا آخر ينتظر..

هززت رأسي علامة على الفهم.. ثم قلت:

- السؤال الثاني: هل لك علاقة باختفاء (عبد الرازق)؟.. الفتى الذي قلت أنا إنه مسعور؟

- بالطبع لا.. لقد فر الفتى لأنه مصاب بمرض الكلب وقد وجدوا جثته في (الريّاح) منذ ثلاثة أيام، لقد أصابته نوبة هياجية جعلته يفر ويرمي بنفسه هناك، وطبعًا لم يجدوه إلا بعد عشرة أيام..، إنني بريء من دمه...

- السؤال الثالث: هل حقًا لم تر أخي (رضا) في بيته بعد إصابته بمرض النداهة؟.. إذن كيف وجدوا مادة الباربيتورات في دمه بعد أسبوع من مرضه؟

ابتسم في مودة كأنه أستاذ يهنئ تلميذًا مجتهدًا. .وقال:

- أنت حقًا ذكي.. لم تنس علم الأدوية بعد، ولم تنس أن بنتوثال الصوديوم قصير المفعول جدًا وأن أثره في الدم يختفي بعد أقل من ساعة من حقنه..، أنت تريد القول أن هناك من كان يزوره ويحقنه بالبابيتيورات في الفترة التي تلت حقنتي الأولى، وهذا صحيح.. لقد كانت (نجاة) زوجة أخيك تدعوني سرًا لرؤية زوجها

وحقنه لأنها لم تكن تثق فيك البتة وكانت تؤمن أنك - عدم المؤاخذة - حمار..!.

- اللعينة!..

- والآن قل سؤالك الرابع بسرعة..

- السؤال الرابع هو: كيف تطيعك (عواطف) بهذه السهولة!

وضع يده على كتفها في حنان وقال:

- إنها تؤمن بي بشدة.. وتفعل أي شيء أطلبه منها..

ابتسمت (عواطف) في فخر..، زوجان سعيدان يحب أحدهما الآخر ولو لم أكن مقيدًا في قبضتهما كالذبيحة لتمنيت لهما الخير..!.

- السؤال الخامس هو: ما نوع التجارب التي تجريها على هؤلاء التعساء..؟!

- سؤال جيد.. إنني أحاول صنع الإنسان السوبر مان لهذا أعرضهم لمؤثرات شتى من الإجهاد الحراري والسموم والباكتيريا.. إن قوة تحملهم تزداد يوما بعد يوم..! وعما قريب لن يؤذيهم شيء..

- باكتـ.... باكتيريا..! لكنك مخبول تمامًا!.. إنك تقتل هؤلاء التعساء ببطء!

قال في كبرياء وهو يرمي سيجارته:

- إن ما لا يقتلني يزيدني قوة....

- وإذا قتلك..؟

- عندئذ أكون أنا إحدى الفضلات التي مرت من مصفاة الانتخاب الطبيعي ومن دوني ستكون الحياة أفضل..، هكذا تكلم زرادشت يا عزيزي!!

يا للمعتوه!.. تمنيت في هذه اللحظة لو كان (نيتشه) أمامي كي أحطم رأسه.. ما أكثر المجانين الذين يزخر بهم هذا العالم وأنا لا أعترض على وجودهم بشرط ألا يؤدي هذا إلى إفناء وجودي أنا.. شخصية محبطة معقدة تعيش وحدها في الريف وتقرأ كتبًا مخبولة ليلًا ونهارًا.. فماذا تكون النتيجة؟!!

انتهت خمسة الأسئلة وحان وقت العمل..!.

في صمت - كأنه جلاد يمارس عمله التقليدي - أعاد لصق قطعة البلاستر على فمي، ثم تناول محقنًا من (عواطف)، وأفرغه في وريد ذراعي.. ثم تناول ملفًا مكتوبًا عليه بخط أنيق:

"دكتور (رفعت إسماعيل) - أستاذ أمراض الدم (٣٧ سنة) خطف ١٢ مايو ١٩٦٢".

وبدأ يخط فيه عبارات عدة بالإنجليزية..، واكتسى وجهه بصيغة رسمية صارمة وهو يصدر تعليماته لزوجته كأنه في مستشفى كبير:

- الحرارة والنبض وضغط الدم وتغيرات الحدقة كل ٤ ساعات، الوجبات العادية.. وغدًا نبدأ الإنهاك الحراري..!.

إنهاك حراري؟!.. ألن ينتهي هذا الجنون؟!.. وكيف أمضى حياتي واقفًا في هذا الوضع أنا الذي لا أحتمل الجلوس في مكان واحد أكثر من ربع ساعة؟!

إنه لمأزق حقيقي...

* * *

بعد أربع ساعات كنت قد انتهيت تمامًا..

هأنذا مقيد تحت رحمة طبيب مجنون كما يحدث في الروايات العلمية الرخيصة.. المشكلة أنني لم أتخيل نفسي أبدًا في هذا الموقف.. والمشكلة الثانية هي أن البطل - في هذه الروايات - يهرب دائمًا في آخر فرصة.. فكيف أهرب أنا؟!..

طبعا لا جدوى من محاولة الاستغاثة أو إدماء معصمي بشد القيد لأن من سبقوني - بالطبع - قد حاولوا كل هذا وفشلوا..، ولا جدوى من أن يبحث علي أحد في القرية لأن اللعين أجاد حبك قصته، وهم لا

يشكون في أن النداهة قد افترستني أنا وأخي..
فتح الباب ودخلت (عواطف) واتجهت نحوي، وفي برود تفحصت حدقة عيني ثم وضعت ترمومترًا تحت ابطي ولفت جهاز الضغط حول ذراعي،، وعدت نبضي، ثم إنها قرأت الترمومتر، واستدارت لتصرف فناديتها بقدر ما استطعت خلف البلاستر..
- (عواطف)! ألا تفهمين ما الذي سيقودك إليه هذا المعتوه؟
- ماذا؟
- السجن أو ما هو أسوأ..! فكري في ذلك.. لم تزل لديك فرصة..
فكرت حينًا بوجه مغلق.. ثم إنها قالت وهي تهز كتفيها وتعيد تثبيت البلاستر:

- هذا ليس من شأنك..! وتركتني وانصرفت..

❋ ❋ ❋

وجاء الليل..

عادت (عواطف) حاملة إناء كبيرًا به عشاؤنا.. وشرعت تدور على الأسرى واحدًا واحدًا تدس في فمه ملعقتين أو ثلاثًا من هذه المادة الهلامية المقرفة ثم تتركه يمضغ بشكل ميكانيكي وتذهب لآخر.. وجاء دوري! رفعت البلاستر من على فمي..

كلا!.. لن أكل من هذا الشيء، ولن يكون فمي هو الخامس بعد هذه الأفواه..!.

- ألن تأكل؟!

سألتني في فظاظة، فقلت لها دامعًا وأنا أشعر بأنني مظلوم إلى حد لا يوصف:

- لا.. لا..!

- كما تريد.. عندما تموت جوعًا ستتوسل من أجل هذا..!.

وهنا خطرت لي فكرة.. الوتر الوحيد الذي يمكن أن ألعب عليه هو مشاعر الأنثى.. أنا لا أفهم المرأة تمامًا ولو كنت أفهمها لكنت متزوجًا منذ عشر سنوات لكنني أعرف عنها صورة ضبابية من قراءاتي لهذا قررت أن أستغل ما أعرف:

- (عواطف)!.. هل أنت واثقة أن د. (عاصم) يحبك..

- ماذا تعني؟

- أعني.. هل هو يستحق كل تضحياتك من أجله؟!

تفكرت حينًا بوجه مغلق.. ثم هزت كتفيها وأعادت تثبيت البلاستر قائلة وهي تنصرف:

- هذا ليس من شأنك!

* * *

بعد أربع ساعات عادت لتأخذ علامات الحيوية، فقلت:

- (عواطف)..! اسمعيني لحظة واحدة..

- هم م م؟

- ان الدكتور (عاصم) لا يحبك.. بل هو يرى أن زواجه منك أحد أسباب كراهيته

لهذا المجتمع.. أنت إحدى علامات هزيمته وهو لن يغفر لك هذا..
نظرت في عيني بوحشية وهمست بفحيح الأفعى:
- أخرس!
- ولماذا يمنع رجل ناضج زوجته من أن تناديه باسمه المجرد؟!.. إنه يخجل منك..
- هذا ليس من شأنك..!
قالتها وهي تهز كتفيها.. وأعادت لصق البلاستر وتركتني وانصرفت...

* * *

في موعد الإفطار عدت أمارس لعبتي الخطرة..
- ألم تتصفحي أبدًا كراسة مذكراته؟!

قالت في كبرياء وهي تدس الملعقة المشئومة في فمي:

- الزوجة المحترمة لا تتجسس على زوجها.. أبدًا..

قلت وأنا أمضغ ذلك الخليط الكريه من مواد مرة وسكرية ومالحة:

- إنه في العيادة الآن.. هلا صعدت إلى غرفته وقرأت مذكراته؟.. أنا رأيتها.. ووجدت بها قصائد شعر ورسومًا وحديثًا عن فتيات كثيرات أحبهن قبلك..

- لا أصدق..

- أمامك الكراسة.. وهو لا يخفيها على ما أظن..

- هذا ليس من شانك.!.

قالتها وهي تهز كتفيها.. لكنها في هذه المرة لم تعد لصق البلاستر قبل أن تنصرف!

❋ ❋ ❋

وبعد ربع ساعة عادت لي والدموع في عينيها وثمة شيء ما في قبضتها... وصاحت وهي تتهانف وأنفها يسيل:

- ذلك السافل... الملعون!

آه... هل أصابت رميتي إلى هذا الحد؟!.. يالي من داهية..

- أنه لم يتزوجني إلا لأني أشبه حبيبته الأولى..

- ألم أقل لك؟!

- والأدهى أنه كتب في مذكراته أنني لا أشبهها إلا في الملامح لأني غبية جاهلة وثقيلة الظل..، وأن ما أفعله من أجله لا يزيده إلا تشبثًا بالأخرى.. ذلك الكاذب المخادع!...

قلت لها وقد شعرت بقلبي يتمزق بالفعل من أجلها:

- حاولي أن تنسي... فكل الرجال لهم حب أول..

وهنا مدت يدها في عصبية بالشيء الذي كانت تحمله.. مفتاح صغير صدئ أولجته في قفل القيود وشرعت تفكها في جنون وهي تصيح:

- والآن اذهب عليك اللعنة!.. اذهب واخرب بيتنا أنا وهو، فلم أعد أعبأ

بشيء.. هيا.. اذهب عليك اللعنة قبل أن أحطم رأسك

وللحظة لم أصدق أنني تحررت، كانت أطرافي متصلبة.. وكدت أسقط أرضًا لكن نظرة واحدة لعينيها الناريتين جعلتني أطلق ساقي للريح..

أخيرًا!.. الشمس والهواء، ولأول مرة منذ أسبوعين..

❋ ❋ ❋

استغرق الأمر ساعتين كي أحضر بعض رجال الشرطة من المركز ليداهموا الوحدة، وكنت قد ارتديت ثيابي وحذائي ووضعت مسدسي في جيبي، ودخل رجال

الشرطة سكن الممرضات فوجدوا الضحايا الأربعة مقيدين كما وصلتهم..

ثم قرعوا باب سكن الطبيب مرارًا فلم يرد أحد.. تعاون اثنان منهما ضخما الجثة على تهشيم الباب، ودخلنا الغرفة.. وكانت كما هي لم يتغير فيها شيء.. إلا أن من دخل غرفة النوم عاد لنا ووجهه ممتقع قائلًا:

- إنهما هنا..

وعلى الفراش كانا.. هي ساقطة على ركبتيها ووجهها مدفون في الملاءة كأنها تبكي بينما هو راقد على ظهره مفتوح العينين ونظرة ذاهلة ترمق السقف..، وعلى الأرض انتشرت أقراص (الدونوليز).. لقد تناولا جرعة قاتلة من

دواء السكر أدت لقتلهما على الفور.. لربما أرادت هي أن تموت معه ولربما أجبرها هو لأنه لم يستطع أن يهرب (وأين يهرب) ولم يستطع أن يظل حيًا ليواجه غضب أهل القرية وصرامة القانون وسخرية الدهماء..

وجواره على الفراش كان كتاب (كفاحي) لهتلر ملقى في إهمال..

قلت في شرود وقد بح صوتي من الرهبة:

- لقد أراد أن ينتحرا مثل (هتلر) و(ايفا براون) عندما غزا الحلفاء برلين... نفس المشهد الأليم.. ونفس الظروف!

التفت إلي رجل الشرطة الواقف جواري سائلاً:

- انتحرا مثل من يا فندي؟!
لا يبدو لي أن أحدهم سيفهم... لن يفهموا مهما قلت أبدًا..!
نهاية مأساوية لكنها أفضل نهاية ممكنة..

* * *

خاتمة..

في مستشفى الجامعة بالقاهرة أكد لي الأطباء مرارًا أن أخي (رضا) بخير وسينجو، وقد احتاجوا لنقل الدم له مرتين وأجروا له غسيلًا بريتونيًا لإزالة ما دخل

جسده من سموم... وقد ظلت أمي وأختي جواره طيلة الوقت وقد سرهما ما بدا عليه من علامات الشفاء الأكيد..

أما (نجاة) - تلك الأفعى القاسية - فقد شكرت الأطباء كثيرًا ولم تكلف خاطرها بتوجيه كلمة شكر واحدة لي، وعلى كل حال فأنا لم أفعل سوى واجبي نحو أخي ولا أحتاج شيئًا خاصًا منها..

شيء واحد أثار حزني، هو أن زملائي لم يستطيعوا أبدًا إنقاذ (الزغبي) لأن تجارب (المرحوم) كانت قد وصلت معه إلى طريق بلا رحمة، أما عن (سعيد جابر) فقد استعاد لياقته، وعاد (إبراهيم السقا) يحلم ويستمتع بالربيع والزهور.. أما أجمل شيء فهو أن أسطورة النداهة قد انتهت

لعدة أجيال ولن تعود إلا لصورتها القديمة.. مجرد أغنية ترعب بها الجدات أحفادهن قبل النوم لمجرد التلذذ برؤية الهلع في عيونهم البريئة المتسعة!!

ولمدة أسبوعين كاملين استمتعت بوجود إمرأتين في بيتي بالدقي - أمي وأختي - فعاد النظام والنظافة، وعدت آكل جيدًا وألبس جيدًا وأنام جيدًا وازداد وزني عدة كيلو جرامات..

وعند الرحيل توسلت لي أمي أن أذهب معهما للقرية كي أعيش هناك للأبد.. لكني هززت رأسي في يأس..، لن أستطيع أن أتخلى عن مهنتي أبدًا ولن أفارق الجامعة وطلبت مني - على الأقل - أن أتزوج سريعًا كي تطمئن علي في وحدتي..

فوعدتها أن أفعل ذلك بمجرد أن أعود من مؤتمر أمراض الدم الذي سيعقد في اسكتلندا بعد ستة شهر..

ودعتهما هما وأخي على المحطة..، ثم عدت لداري الخاوية وقد أدركت تلك الحقيقة المروعة: لقد انتهت اجازتي ولن يسمح لي العميد بيوم آخر وإلا كان في ذلك خراب بيتي...

حتى ساعات راحتي صارت أكثر توترًا وانهماكًا من ساعات عملي!

والآن وقد انتهت قصتي مع الأشباح حان الوقت لأحظى بحياة طبيعية لكني لم أكن أعرف أنني سألقى شيطانًا من نوع آخر في مكان آخر يطير كل احتمال للراحة من حياتي.. ولكن هذه قصة أخرى.

د. رفعت إسماعيل
القاهرة في مارس ٩٢

[تمت بحمد الله]

رقم
الإيداع:
١٦٠٦

المطبعة

العربية
الحديثة
٨ و١٠ شارع ٤٧
المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت:
٢٨٢٣٧٩٢ -
٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايـــات تحبس الأنفـــاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

أسطورة النداهة

هل تسمعون هذا الصوت
العميق الساحر القادم من المجهول ...
؟! دعونى ألحق به ... ، ستقول أمهاتكم إن
هذا هو صوت النداهة وأن ما من إنسان لبّاه إلا
واختفى كل أثر له .. ، ستقول زوجاتكم إن هذا هو
صوت النداهة .. الغول المتنكر في صورة فتاة حسناء
تغرى الرجال باللحاق بها ... ، ستقول أخواتكم ... لا
... لا تذهبوا ... لا تصدقوا هذا الكلام .. تعالوا معي
إلى الحقول المظلمة فى قرى محافظة الشرقية ..
تعالوا نلبى هذا النداء .. ، و إذا ما فقدتم
حياتكم فلا تخبروا أحدًا بأننى من
دعاكم إلى النداهة !!

المؤلف



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم : أسطورة وحش البحيرة

الثمن في مصر ـــ ص
وما يعادله بالدولار الامريكي
في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ – ٢٨٣٥٥٥٤ – ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

Notes

[←1]

عقار منوم.

[←2]

أوليس) أو (أوديسيوس) بطل ملحمتى هوميروس)
(الإلياذة) و(الأوديسة) اللتين تتحدثان عن حربه
في طروادة ثم عودته الشاقة إلي زوجته المخلصة
بنيلوبي)).

[←3]

قد يحدث مرض الكلب نتيجة عضة الثعلب أو الفأر
أو السنجاب أو الجمل وليس بالضرورة الكلب.

[←4]

الكورو) وباء فيروسي يصيب المخ ويسبب ضحكًا)
متواصلًا حتى الموت، وهو ناجم عن عادة إفريقية
قديمة هي أكل مخ الموتى نيئًا لاتقاء شرهم!

[←5]

وحدة الأبحاث الطبية التابعة NMRU (النمرو) للبحرية الأمريكية.

[←6]

نيتشه فيلسوف ألماني اشتهر بدعوته للقوة ونبذ الضعفاء والمرضى من المجتمع... وفلسفته قاسية غير إنسانية كانت هي أساس فكرة النازية التي تبناها (أدولف هتلر)، وأشهر كتب نيتشه هو (هكذا تكلم زرادشت).

[←7]

قصة حقيقية.

[←8]

الكهارل أو الإلكتروليتات هي أيونات الدم الموجبة والسالبة.

[←9]

ساحر عالمي شهير اشتهر بقدراته على فك القيود والهرب من الفخاخ مهما كانت محكمة.